عزيز نيسين

يساري أنت؟!!... أم يميني؟!!

مجموعة قصصية مختارة

SAMBINDNINGEN
890 16 55 3472 F4
Bibliotekstjänst

KARLSTADS STADSBIBLIOTEK

2005 -03- - -

KARLSTADS KOMMUN

Hb

Ex. nr:

Hsg **Nesin, A.** Yasārī anta
am yamīnī?!!! 1 /2002

462 78 43 0034 9C

Bibliotekstjänsts sambindning

يساري أنت أم يميني؟!!!

Hsg **Nesin, A.** Yasārī anta am yamīnī?!!! 1 /2002

I samlingens titelnovell beskriver författaren det splittrade politiska läget i landet. En bybo åker till Istanbul för att söka jobb. Han hamnar slumpmässigt i olika demonstrationståg och i varje demonstrationståg blir han misshandlad.

462 78 43 OB

يساري أنت أم يميني؟!!!

للكاتب التركي: عزيز نسين

نقلها عن التركية: جمال دورمش

قدم لها: الدكتور والأديب عادل الفريجات

منشورات دار علاء الدين

- يساري أنت أم يميني؟!!!
- تأليف: عزيز نسين.
- ترجمة: جمال دورمش.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: المهندس محمد طـه.
- الإخراج الفني: أسامة رحمـة.
- يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

تقديم

بقلم: الدكتور عادل الفريجات

حين طلب إليَّ الأستاذ المترجم جمال دورمش أن أكتب مقدمة لترجمته لهذه المجموعة القصصية الساخرة، للكاتب التركي (عزيز نسين)، صادف ذلك مني رضىً وترحاباً. لأن الأدب الساخر، الذي يُعد (نسين) علماً كبيراً من أعلامه، يستهويني ويطربني، ولأنني لا أملك إلا أن أستجيب لكل واثق بي وبكتاباتي، عملاً بالقول القائل: "مَن ظنَّ بك خيراً، فصدق ظنه".

وكنت قد قرأت لهذا الكاتب المبدع أكثر من مجموعة قصصية ورواية. وفي دراسة لي سابقة حول الأدب الساخر نشرته مجلة المعرفة بدمشق _ العدد (٤٤٧) حاولت التعرف إلى هذا الكاتب الكبير ومدى حضوره في الساحة الثقافية العربية، فعلمت أنه ترك بعد وفاته في العام ١٩٩٥ (١١٢) كتاباً مطبوعاً، وأن وراءه إرثاً كتابياً آخر مازال مخطوطاً. ومطبوعاته ومخطوطاته تتراوح ما بين القصة والرواية والمسرح والشعر والمقالة الصحفية.

وكان نسين قد ولد في العام ١٩١٥ لعائلة معدمة، وعانى الكثير في حياته، فوضع تحت المراقبة، وسجن لسنوات عدة. ويُقال إن إقامته في السجن كانت أطول من إقامته خارجه. وقد عمل بالتجارة والصحافة، وتنقل ما بين بقال وصاحب مكتبة وضابط ومصور فوتوغرافي... وطلقته زوجاته الثلاث، وترك وراءه ثلاثة أولاد وابنة.

وقد أصدر نسين بالتعاون مع صديقه صباح الدين علي جريدة في العام ١٩٤٦ باسم (ماركو باشا) وصلت مبيعاتها إلى ستين ألف نسخة يومياً. وبعد سن الخمسين حصل على جواز سفر تركي بعد أن كان ممنوعاً من مغادرة بلاده، وهذا مكنه من حضور مؤتمرات أدبية عالمية.

وكان نسين قد بدأ بالكتابة وهو في سن الأربعين، وبعد أن رسخت قدمه فيها حصد عدة جوائز، منها الجائزة الأولى لعامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ في المسابقة العالمية للكتابة الساخرة التي جرت في إيطاليا باسم بودغيرا، وجائزة القنفذ الذهبي لأفضل كتابة ساخرة من بلغاريا في العام١٩٦٦، وجائزة التمساح الدولية للكتابة الساخرة التي أقامتها مجلة التمساح السوفيتية في العام ١٩٦٩، وجائزة المجمع اللغوي التركي في العام ١٩٦٩، وجائزة لوتس التي يمنحها اتحاد كتاب أسيا وأفريقيا وذلك في العام ١٩٧٥.

وانتخب نسين رئيساً لاتحاد كتاب تركيا في العام ١٩٨٠. وقد زار كلاً من مصر والعراق وسورية قبل وفاته في العام ١٩٩٥ كما ذكرنا.

وأنشأ نسين وقفاً باسمه نذر له ريع أعماله الأدبية الغزيرة لمساعد الأيتام واللقطاء والطلبة الدارسين الفقراء. وفي مجموعته هذه قصة بعنوان "تدوين تلك الليلة" كتبها نسين عام ١٩٩٢، وقعت أحداثها في ذلك الميتم الذي أقامه. وفي ليلة رأس السنة يبسط الكاتب ما مر في داخله إثر نوبة قلبية ألمت به، ويخامره شعور بأن الموت منه قاب قوسين أو أدنى، ويؤلمه كثيراً أن يتعكر احتفال أطفاله بهذا العيد، ويتمنى لو يستطيع كتابة كيف يموت، يقول مثلاً:

"يا خسارة لن أستطيع كتابة كيف مت.. وأكثر ما يزعجني هو هذا الشيء. فالكاتب حتى لو دوّن كل لحظات حياته إلا أنه سيبقى عاجزاً عن كتابة موته. على الرغم من أن الموت من أهم حوادث الحياة، وهاأنذا ذاهب دون تدوين أهم لحظة من لحظات حياتي". والحق أن هذه القصة هي القصة الوحيدة غير الساخرة في هذه المجموعة.

إن عظمة إنتاج عزيز نسين وغزارته مكنتاه من أن يصبح بحق كاتباً عالمياً، فقد ترجم أدبه إلى عشرات اللغات العالمية. ويهمنا هنا أن نشير إلى ترجمات أدب نسين إلى عربيتنا، فقد ترجم له عبد القادر عبد اللي: رواية زوبك - الكلب الملتجئ في ظل العربة (١٩٨٨) والحمار الميت (١٩٨٩) وفي إحدى الدول (١٩٩٠) ورواية الطريق الوحيد (١٩٩٧)، وترجم له عمر عدس: أطفال آخر زمن (١٩٩٨)، وفاروق مصطفى: كيف ينقلب الكرسي (١٩٩٢)، وترجم أحمد الإبراهيم: كيف قمنا بالثورة (١٩٩٨) وآلة الخطابات (٢٠٠٠)، وترجم فاضل جتكر: مختارات قصصية لعزيز نسين (١٩٨٣).

ولعل مترجم هذه المجموعة الأستاذ جمال دورمش هو الأكثر عناية بأدب هذا الكاتب العالمي، فقد ترجم له سبعة أعمال. والأستاذ دورمش مولود في قرية الغسانية بالجولان المحتل في العام ١٩٥٨، وهو عضو اتحاد الصحفيين، واتحاد الكتاب العرب "جمعية الترجمة"، ويتقن اللغتين التركية والروسية.

ومن حسن الطالع أن السيد دورمش ترجم هذه المجموعة التي نقدم لها عن التركية مباشرة دون لغة وسيطة. وهذا شأن يصب في صالح أمانة النص. وقد دعي الأستاذ المترجم لحضور مؤتمر أدبي عن عزيز نسين عقد في ألمانيا في العام ١٩٩٩، ولهذا فهو يكاد يكون

متخصصاً بأدب هذا الكاتب، أو على الأقل متابعاً لما يدور حول أدبه من نشاطات ثقافية. ولا غرو في ذلك، فقد ترجم الأستاذ دورمش لنسين من الأعمال:

١- آه منا نحن معشر الحمير (١٩٩٤)
٢- العرض الأخير (١٩٩٥)
٣- يسلم الوطن (١٩٩٦)
٤- خصيصاً للحمير (١٩٩٧)
٥- حكاية البغل العاشق (١٩٩٨)
٦- العسل المبرطم (٢٠٠٠)
٧- يساري أنت أم يميني (٢٠٠٢)

وهو يقوم الآن بكتابة دراسة حول العنف السياسي والديني في تركيا في القرن العشرين.

وقد قرأت ترجمة السيد دورمش لمجموعة نسين هذه الأخيرة، وأكبرت فيها اهتمامه بكاتب عالمي كبير، وحرصه على إغناء مكتبة الأدب العربي الحديث عامة والأدب القصصي خاصة بتجربة ناضجة وجاذبة وذات ميسم إنساني تقدمي في الوقت نفسه، تجربة استطاع صاحبها تحويل الحزن إلى فرح، وتمكين النفس الإنسانية من أن تتحمل قدرها الغاشم، من خلال ابتسامة ساخرة تجابه بها قسوة الحياة وعبثها. وقد كتب نسين في مقدمة مجموعته القصصية التي طبعتها وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٣ يقول: "سيميائيو العصور الوسطى عجزوا عن قلب الحجر إلى ذهب، أما أنا فسيميائي نجحت في قلب دموعي إلى ضحكات قدمتها للعالم".

والحق أنك، وأنت تقرأ عزيز نسين، تشعر للتو بأنك في حضرة كاتب ساخر من الطراز الأول، وسخريته لاذعة، إنه كما يقول عنه

سليمان الشيخ: "صاحب حساسية دقيقة فائقة في التقاط المفارقة الكامنة في الكثير من تفصيلات الحياة، وهو يملك تداخلاً محبوكاً بدقة وتسلسلاً موزعاً بسلاسة واقتدار (مجلة العربي - الكويت عدد ٣١٠ لعام ١٩٨٤)

وهذه الميزة في أدبه نلمسها لمس اليد في كثير من قصص هذه المجموعة التي تضم إحدى عشرة قصة بدءاً من قصته "حتى التزوير لا يمكننا من القيام به"، وانتهاء بقصته "خالي جيانغ واو". وفي هذه القصة الأخيرة يخبرنا نسين بأن خاله المحارب القديم والمعوق، مطلوب إلى المخفر من قبل الخفير يونغ تشي، ويمتنع الخال عن تلبية الطلب رغم إلحاح الخفير وتهديده، ويغضب، ويشرع في شتم الخفير، وشتم كل من عيّنه بأقسى الشتائم، ثم يطور شتائمه على المفوض، ثم على من سن القوانين، ثم على الحكومة...

وعندما يحضر إلى رئيس المخفر يعيد الشتائم ذاتها، وبجرأة أمام رئيس المخفر، ثم يعيدها على المفوض دون أن يغير فيها حرفاً واحداً، ويعيدها أيضاً أمام النائب العام، ويعيدها أخيراً أمام المحكمة... ورغم أن محامي الخال "جيانغ واو" طلب منه عدم الاعتراف بما نسب إليه من سب المقام المقدس وأشخاص عدة مسؤولين، أصر الخال على الاعتراف بالشتم، وبعدد أسماء الأشخاص الكبار الذين شتمهم. وعندما كان يكرر شتائمه لهم كانت إمارات الراحة تبدو على أسارير القاضي... واستمرت المحاكمة أكثر من سنتين، وكان المحامي يستغرب ذلك، ويعبر عن عدم فهمه لأسباب إطالة مدة المحاكمة... ثم صدر عفو عام وطوي الملف نهائياً. ولما مات الخال شارك جميع أهالي منطقته بتشييعه، وكان بينهم الخفير "تشي" والمفوض وعناصر المخفر والقاضي. وجميعهم كانوا يتذكرون

شتائم الخال ويرددونها، وقد أطلقوا عليه أهم الشتامين.

و هكذا يصوغ الكاتب قصته بحذق وبراعة وإيقاع وتفاصيل لا تزيد ولا تنقص عن مقتضى الحال، مقدماً لوحة كاملة عن شخص أو حالة أو موقف أو تفكير تثير الابتسام وتبعث الإضحاك.

والحق أن الأدب الساخر لا يسخّر للإضحاك فحسب، بل له أهداف وغايات أخرى. ومن أهم أهدافه تكريس السلوك السليم، والتصرف المستساغ، وتعديل مجرى اتجاه متطرف، والهزء ممن يجارون المنحرفين والمسيئين... وقد يتم الإضحاك من خلال اللعب على الكلمات، أو العبث بالمفاهيم وتشويهها، أو استثمار المواقف المتعارضة والمتناقضة، أو تكبير الصغائر أو تصغير الكبائر، أو إبراز سمات النفس المريضة على نحو مستهجن ومفاجئ وغريب ومبالغ فيه، أو نبش حقيقة داخلية تتحين الفرص لظهورها، كما هي الحال في قصة (نسين) الأخيرة، التي كشفت على نحو ذكي وغير مباشر أن القاضي ينطوي على رغبة في شتم المسؤولين والحكومة في بلاده، ولكنه لا يفصح عن ذلك... وقد أطال مدة محاكمة الخال "جيانغ واو" لهذا الغرض بعينه، لأنه وجد هذا الخال يتكلم بلسان حاله تماماً.

إن أدب السخرية والضحك أدب عالمي لا يختص به شعب دون آخر. وفي وسعنا أن نذكر عند كل شعب كاتباً ساخراً كبيراً، فلليونان (أرستوفان) وللعرب (الجاحظ) وللإسبان (سرفانتس) وللفرنسيين (موليير) وللإيرلنديين (جورج برناردشو) وللأمريكيين (مارك توين) وللألمان (غونتراغراس).

وفي تراثنا العربي لم يكن الجاحظ الساخر الوحيد، فثمة البهلول وجحا العربي والحطيئة وأبو العيناء وابن مماته صاحب رسالة "القاشوش في أحكام قراقوش".

وفي التراث التركي ظهر نصر الدين خوجا الذي يقابل جحا العربي.. وقد أفاد عزيز نسين منه، كما أفاد من بعض كتب الأدب العربي القديم، مثل كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة.

وخلاصة القول: إن السخرية لون أدبي صعب الأداء يتطلب موهبة خاصة وذكاء حاداً وبديهة حاضرة. وهو في الوقت الذي يسعى للغض من السلوك المنحرف، ويهزأ من الخروج على الأعراف والمفاهيم والتقاليد، يحفظ للمجتمع كيانه. كما يمتاز بوظيفة نفسية حذقها "عزيز نسين" أفضل حذق، وتتمثل بكسر حد الجدية المفرطة والتجهم الكريه، فالحياة بلا نكتة يصعب أن تعاش.

وقد كان الضحك علاجاً لكثير من المشكلات وتنفيساً عن كبت وترويحاً عن قهر، وهو في كل نتائجه، إن لم يخرج إلى شطط، نافع ومجدٍ. وجدواه لا تقتصر على خاصة الناس الذين يقبلون على الأدب الساخر، بل تمتد إلى عامتهم الذين نجدهم يهوون الفن الضاحك ويرتاحون للعمل (الكوميدي) مسرحاً وتلفازاً وسينما، أكثر من راحتهم للفن الجاد والعمل التراجيدي. وفي هذا لغز ينبغي أن نتأمل فيه ومسألة جديرة بالتمحيص والتحليل. فهل الحياة ملهاة أكثر منها مأساة؟.. أم هي مأساة لا بد من ملهاة معها لنحتملها؟؟؟

دمشق في ٢٠٠٢/١/١

الدكتور عادل الفريجات

حتى التزوير لا يمكّنوننا من القيام به

كان أكبر مزور عملة على مر العصور. لم يتبجح بذلك إطلاقاً. بل العكس تماماً، فقد كان متواضعاً إلى درجة ملفتة للنظر، فلم يسمع منه في يوم من الأيام أنه تبجح بنفسه، كما هو معروف عن ذوي السوابق من لصوص وقطاع طرق ونصابين وما شابه - من حب التباهي بمغامراتهم، وتضخيمها آلاف المرات، مستفيدين في ذلك من خصوبة خيالهم وسعة أفقهم، وكذلك من قدرتهم على انتحال أعمالٍ لم يقوموا بها. هكذا يفبركون الأمور من سرقة ونصب واحتيال وقطع طرق. ولكثرة ما يرددونها يصلون إلى مرحلة يصدقون فيها أنفسهم أنهم فعلاً قد قاموا بتلك الأفعال، أليسوا بشراً أولاً وأخيراً؟.

أما ملك المزورين فلم يكن من هذا الصنف إطلاقاً، كان ملكاً حقيقياً، نظيف السمعة، متزناً، لا يتحدث عن إنجازاته الخارقة في التزوير، بل تتناقلها الألسن. عدا عن ذلك فهو رجل ذو خبرة وتجربة، نقي ومتزن.

و بغض النظر عن كل شيء، فهو إنسان عاش حياته بالطول والعرض، اسمه معروف في كل السجون والمعتقلات على الرغم من ندرة دخوله إليها. يكفي أن تنشر الصحف نبأ اعتقاله حتى ينتشر الخبر في السجون كانتشار النار في الهشيم.

هذا الخبر لا يدخل السعادة في قلوب الأفاقين والفقراء

والمساكين وحسب، بل حتى زعماء العنابر والحراس والسجانين وإدارة السجن، لأن دخوله إلى السجن يعني تغير أجواء السجن باعتباره مصدراً هاماً للدخل ومعيناً لا ينضب من المال.

حتى أن البكوات والأغنياء وأتباعهم كانوا يخصصون له في "قاووشهم" الخاص أفضل سرير من طابقين في أحسن موقع قرب النافذة، الطابق العلوي في الصيف، والسفلي في الشتاء. وفيما لو كان هذا السرير محجوزاً لأي شخص كان يطلب إخلاؤه منه.

و قبل وصوله، يتم اختيار ثلاثة أشخاص لخدمته، أحدهم لإعداد الطعام، والآخر لتحضير الشاي، والثالث للخدمات الأخرى.

كانت حقائبه تسبقه إلى السجن قبل وصوله، أربع حقائب كبيرة على أقل تقدير، كأنه سينزل في فندق فخم، وأية حقائب؟ فاخرة مصنوعة من جلد الخنزير لم يشاهد مثلها في كل السجون... حتى أن المساجين الأغنياء لا يمكنهم القيام بذلك لأنهم لا يمنحون مثل هذه الفرصة لإحضار حقائبهم عند القبض عليهم. لذلك فلملك المزورين مكانة خاصة.

كل ما يرتديه من الحرير الخالص، من جواربه إلى قميصه، ومن منديله إلى بيجامته ومن ياقته حتى ربطة عنقه.

منذ الصباح الباكر يقوم الخدم الثلاثة بالتنقل والدوران حول سريره، يكفي أن يفتح عينيه ويتجشأ ليحضر أحدهم طعام الإفطار، بينما يقوم الآخر بوضع الصحف الثلاث على سريره، أما الثالث فينتظر واقفاً وبيده المنشفة وصابونة معطرة متأهباً لذهابه إلى المرحاض.

بعد تناول الملك طعام إفطاره واحتساء بعض أكواب الشاي

المحضر خصيصاً له، يضع نظارتيه كي يقرأ الصحف، وبعد ذلك يذهب إلى المرحاض ومن خلفه خادمه.

أما طعام الغداء، فغالباً ما يوصى عليه من المطاعم الفاخرة، المشهورة جداً. عند المساء تجهز طاولة القمار، غالباً ما يخسر أموالاً طائلة دون أن يرف له جفن.

لم يُشاهد غاضباً في يوم من الأيام، ولم يُسمَع صراخه، ولم يرتفع صوته، كأنه ملك حقيقي من سلالة ملوك أباً عن جد.

عند دخوله السجن تتبدد الكآبة وترتسم البسمات على وجوه السجانين وتنفرج أساريرهم لأن ظروفهم الاقتصادية ستتحسن داخل السجن، وشيء طبيعي أن ينعكس ذلك على العلاقات الاجتماعية. فمدمنو المخدرات والمشروبات سيزيدون من استهلاكهم، وكذلك سينتهي الشجار والصخب داخل السجن، وستتوقف أعمال الشغب وما شابهها، وهكذا ستكون وجوه الجميع ضاحكة.

لكن ثمة قلقاً ينتاب الجميع من لحظة دخول ملك المزورين إلى السجن، لأنه سيطلق سراحه بسرعة، فأكثر مدة يمضيها عادة عدة أشهر، ريثما تبرأ ساحته أو يدفع كفالة إخلاء سبيل، وبعدها يبدأ الجميع بالتحدث عن كرمه وسخائه باستمرار.

ألقى حلاق السجن الصحيفة التي كان يقرؤها وقفز فرحاً ليصرخ بأعلى صوته "هيه".

هذا الحلاق كان محكوماً بثمانية عشر عاماً بسبب ذبح زوجته من عنقها.

سئل الحلاق عن سبب سعادته.

أجاب قائلاً:

KMH

نشرت الصحف نبأ اعتقال ملك المزورين، وغداً سيحضرونه إلى هنا.

وبانتشار الخبر في السجن خيم على السجن الفرح والسعادة..

حسب توقع المساجين تم إيقاف ملك المزورين في مديرية الأمن لمدة يومين وبناء على طلب المحققين تم تحويله إلى السجن.

دخل الملك باب السجن في اليوم الثاني من نشر الصحف الخبر التالي "ملك المزورين في قبضة العدالة" لكن دخوله هذه المرة ليس كالمرات السابقة، ففي السابق كان الملك يصل إلى السجن بعد وصول حقائبه وأغراضه وفرشه بعدة ساعات يرافقه بعض رجالاته. أما في هذه المرة فقد وصل وحيداً، نزل من سيارة الحجز مقيداً مع مساجين آخرين، معه حقيبة صغيرة بالية مربوطة بخيط ثخين لعطل في قفلها، مر بين صفين من الشرطة، منتعلاً حذاءً رثاً بالياً وكأنه ملك الزمان نزل بين رعيته متنكراً ليطّلعَ على أحوالهم.

لعل أول المندهشين والمستغربين لمشاهدته بهذه الهيئة كان رئيس حراس السجن، ومن ثم الحراس والمساجين الذين يعملون في خدمة إدارة السجن، حتى ذلك الحلاق الذي طار فرحاً لحظة قراءته خبر اعتقاله في الصحيفة أصابه الإحباط.

عندما عرف الملك أنه مثل كل مرة تم حجز أفضل سرير له في أجمل موقع، وتم فرز ثلاثة خدم لخدمته، أعلمهم أنه لا حاجة له بذلك وأنها غير ضرورية حتى أنه سينزل في أي مكان من قاووش آخر.

استغرب زعيم قاووش الأغنياء وقال له:

ما هذا الحكي؟ استغفر الله ...

لم يستطع ملك المزورين إخفاء انزعاجه من وضعه المنحط الحالي الذي كان واضحاً من قسمات وجهه.

نقل زعيم القاووش رغبة ملك المزورين إلى زعيم السجن. بينما رد عليه زعيم السجن بالانتظار وأنه لا بد أن تأتي اللحظة التي تتكشف فيها كل الأمور.

في اليوم الثاني من قدوم ملك المزورين، تم تحضير طاولة القمار ودعوه إلى اللعب، إلا أنه اعتذر قائلاً "لا رغبة لي بذلك هذا اليوم، أشكركم".

أين ذلك الملك الذي كان يوصي على طعام غدائه من الخارج ويرسل ملابسه للتنظيف والكي إلى خارج السجن، لقد ولت تلك الأيام فهو الآن يحضر طعامه ويغسل جواربه بنفسه.

في اليوم الثالث من قدومه طلب من رئيس الحرس نقله من قاووش البكوات إلى أي قاووش آخر. أبى رئيس الحراس تنفيذ طلبه، وهو الذي كان يتلقى منه الهدايا القيمة منذ سنوات طويلة، كيف يمكنه نقل ملك المزورين إلى قاووش المنحطين؟!!.. ومع ذلك رفع طلب ملك المزورين إلى مدير السجن.

مدير السجن هذا كان يعرف المزورين جيداً، لأنه كان يمتلك تجربة وخبرة واسعة، وقريباً سيحال إلى التقاعد. لذلك اهتم كثيراً بوضع هذا الشخص المعروف والظروف التي أوصلته إلى هذه الحالة.

ذات مساء وبعد انتهاء العمل دعا مدير السجن ملك المزورين إلى غرفته.

في السابق كان ملك المزورين يدخل إلى غرفة المدير كملك حقيقي، بوجه باش وهيئة ملك، أما في هذه المرة فقد دخل عليه كمذنب يخجل من فعلته:

- نعم يا سيدي قالوا إنكم طلبتموني. وظل واقفاً في مكانه.

رد عليه مدير السجن مشيراً:

- تفضل اجلس.

شكره ملك المزورين وجلس في المكان المشار إليه. قدم له المدير سيجارة، وبعدما طلب من الحاجب إحضار كأسين من الشاي سأل ملك المزورين بلغةٍ لطيفةٍ محاولاً عدم جرح مشاعره وإهانة كرامته.

راح ملك المزورين ينفّس عن همومه أمام شخص يعرف "البير وغطاه":

- يا سيادة المدير، على الإنسان أن يعشق عمله مهما كان هذا العمل جيداً أو سيئاً، وكما تعرفون والعالم كله يعرف أنني مزور. وهناك أنواع شتى من المزورين، مهنتي طباعة العملات المزورة. أي شيء تريد طباعته، إن رغبت دولارات أو إسترليني أو روبل، أطبعه لك بطريقة لا تسمح لأحد بالتفريق بين المزور والحقيقي، ولو أخذتها إلى كبار المتخصصين في كشف العملات المزورة لفشلوا في ذلك، ولقالوا: إن العملة الحقيقية مزورة، وما قمت به حقيقي. أنا أقوم بتزوير العملات الورقية والمعدنية. أرجو ألا يفهم ذلك من باب التباهي، لا يوجد أفضل مني في هذا البلد بل في كل العالم... شاهدت الكثير من أعمال المزورين الآخرين، ولا شيء منها يرقى إلى مستوى أعمالي.

- ليست سهلة يا سيادة المدير، فأنا أكمل حتى نيسان القادم خمسين عاماً في هذه المهنة ولا أمتهن غيرها، لماذا؟.. لأنني لم أحاول أن أقوم بغيرها ...

- مهنتي نظيفة، فالإنسان حسب وجهة نظري يجب أن يجيد عمله تماماً، وإلا فإن نتائج عمله ستكون أي شيء، ماذا أريد من هذا

القول؟.. سياسيينا؟.. لكن إياكم أن تظنوا أنني أشتغل في السياسة يا سيادة المدير.. معاذ الله.. أنا لا أحب السياسة بتاتاً، ولا أعرفها، ولا أشتغل بها، لأنني لا أعرفها. حسناً أليست السياسة من أجل قيادة البلد وسكانه بصورة جيدة؟. يعني هل السياسة أسهل من التزوير؟. انتهيت، لقد انتهيت تماماً يا سيدي. تخيل بلداً لا يمكنك القيام فيه حتى بالتزوير، هذا يعني أن كل شيء قد انتهى في ذلك البلد، كل شيء قد انتهى، كيف تقوم بالتزوير يا سيادة المدير، وهم لم يتركوا لك التزوير لتقوم به حتى.. عندما يكون أساس العمل مزوراً، إذاً فكيف ستقوم بالتزوير؟.. إذاً لِمَ حتى التزوير لا يمكّنوننا من القيام به؟. لأن الشيء الذي سنزوره هو بالأساس مزور. هل يمكن تزوير المزور؟. عندما تقوم بتزوير المزور ستصاب بما أصابني، يعني بالإفلاس.. لست الوحيد في هذا المضمار.. قريباً ستشاهدون أن نهايتنا جميعاً هي الإفلاس. لماذا؟.. لأن التزوير من أهم المقاييس التي تبين حالة البلد الاقتصادية. فقوة العملة تقاس بطبعاتها المزورة. لكن عندما لا تستطيع القيام بطبعة مزورة عن العملة... فهذا يعني أن القانون هو الضابط الوحيد الذي يحافظ على قيمة العملة. وهذا ما يسكتني لأنني أحترم القانون يا سيادة المدير...

توقف قليلاً وأشعل سيجارة أخرى وتابع:

-لا أدري هل استطعت توضيح السبب الذي أوصلني إلى هذه الحالة؟.

راح مدير السجن يحدق وكأنه يُمحِّص في بعض الأشياء، ومع ذلك لم يستطع معرفة السبب الذي أوصل ملك المزورين إلى هذا الوضع المزري:

- تابع.. تابع

تابع ملك المزورين ما بدأ به:

- شكراً لله حرفتي مطلوبة في كل أصقاع الأرض، ويدي ذهبية، لعل هذا هو السبب في عدم حاجتي لتعلم مهنة أخرى. قبل عامين أو ثلاثة أعوام كنت أعيش مثل البكوات والباشاوات، وأي باشاوات؟!! لم لا أقول مثل الملوك؟.. لذلك ليس من العبث أنهم وصفوني بملك المزورين.. حتى أنتم تعرفون ذلك... نعم كنت ملك حرفتي أليس كذلك؟. حتى سلبوا مهنتي مني، (تشرشحت) مهنتي لأنها أصبحت في أيدٍ غريبة.

مهنتنا يا سيادة المدير، أقصد التزوير مهنة لها طابع خاص في المزاحمة، ونحن منافسون خاصون، مثلنا مثل كل المنافسين نواجه الدولة، هذا يعني أننا والدولة في حالة منافسة دائمة، يعني، لأوضح لك الأمر، الدولة لديها مصنع النقود، تطبع فيه النقود، وأنا كمنتج خاص لدي مشغل صغير، أطبع فيه النقود. وكالعادة أنا أكسب المال، بينما الدولة تخسر على الرغم من امتلاكها للمصنع. لِمَ أنا أربح في مشغلي الصغير والدولة تخسر في مصنعها الكبير؟. لأن الدولة تقوم في السنة الأولى بتكليف عشرة أشخاص لإنتاج شيء ما، وفي السنة الثانية تكلف مئة شخص، وفي السنة الثالثة ألف شخص لعمل يقوم به شخص واحد، عدا عن ذلك فالعمل الممكن إنجازه في يوم واحد تنجزه الدولة في السنة الأولى في عشرة أيام، وفي السنة الثانية في عشرة أشهر، وفي السنة الثالثة تنجز عمل اليوم الواحد في عشر سنوات، كذلك إذا كانت كلفة إنتاج حاجة ما ثلاث ليرات

تجدها تنتجها في السنة الأولى بثلاثمئة ليرة وفي السنة الثانية بثلاثة آلاف ليرة وبعدها بثلاثمئة ألف ليرة، لتصل فيما بعد إلى ثلاثة ملايين ليرة للقطعة الواحدة، عدا عن ذلك فإذا كان إنتاج أي شيء يحتاج إلى مكان مساحته أربعة أمتار مربعة، ففي العام التالي يحتاج إلى أربعمئة متر، وفي العام الذي يليه يحتاج إلى أربعة أضعاف ذلك.

فلِمَ تقوم الدولة بذلك؟ ... لوجود البيروقراطية حتماً.. عندما تقول البيروقراطية تعني الحكومة.. لذلك أينما وجدت حكومة وجدت البيروقراطية.. عندما تقول حكومة، يعني رئيس حكومة ووزراء، وهؤلاء لهم أحزابهم، ولكل واحد منهم أتباعه وهؤلاء لهم شواغرهم وهكذا.. بعد ذلك وعندما تتغير الحكومة ذات يوم.. لتتشكل حكومة جديدة.. رئيس حكومة ووزراء جدد.. يعني عليك تعيين أتباع الأحزاب التي تنتمي إليها الحكومة.. وفي الوقت نفسه لا يمكنك تسريح جلاوزة الحكومة السابقة فالقوانين لا تسمح بذلك. ومن ناحية ثانية لا يمكنك رفض مؤيدي الحكومة الجديدة لأنهم مدعومون من الحكومة ذاتها، وهكذا يتولد لديك مفهوم الحكوماتية والحكوماتيين. وهذا المفهوم في النهاية يؤدي إلى أن تخرب الحكومة بيتها بيدها. مهما كانت...حتى لو أن الدولة أفلست فلا أحد يدري بذلك، ولم يسمع ذات يوم عن دولة أعلنت إفلاسها. لأنه لا توجد محكمة دولية للقيام بتلك الإجراءات. لذلك وعبر التاريخ لا تجد دولة أفلست،و حتى لو أفلست فلا أحد يعرف بذلك. حتى أن بعض الدول لا تعرف عن إفلاسها. لكن ألا يوجد مخرج لذلك؟.. نعم يوجد.. لكل شيء تجد مخرجاً، ويكفيك أن تجد هذا المخرج. ومن السهولة بمكان أن تجد المخرج المناسب. لنقل إن مطبعة الدولة ستقوم

بطباعة ذات الخمسة آلاف.. كم تكون قيمة هذه الورقة النقدية عند الدولة.. لنقل مئة ليرة.. هذا يعني أن الدولة تعطيك المئة ليرة بخمسة آلاف.. بينما أنا كمنتج خاص كم تكلفني طباعة هذه الورقة النقدية؟. عشر ليرات.. البضاعة هي ذات البضاعة. حتى أنني أضمن في العشر ليرات نفقات كثيرة، كالأجور والمساعدات التي أقدمها لبعضهم، ونفقات المراقبة والرشاوى للقيام بذلك. لذا ما العمل؟.

يجب تحويل هذه المصانع إلى استثمارات خاصة، لكن عندما أقول استثمارات خاصة لا أقصد أي مستثمر خاص.. بل أقصد مستثمراً ذا خبرة غنية وسمعة نظيفة..

تدخل مدير السجن مقاطعاً:

- بعني على سبيل المثال لو أنهم سلموك...

و انفجر ضاحكاً، وبعد أن تمالك نفسه قال:

- و ما علاقة ما قلت في إيصالك إلى ما أنت فيه الآن؟.

- علاقة وثيقة، ومن الأفضل أن أشرح لك ذلك من خلال مثال واقعي. لنقل: قبل ثلاث سنوات ما هي نفقات طباعة ألف ورقة من ذات الألف؟.

لطباعة العملة تحتاج إلى ورق خاص، دهان، أحبار، فلم، كليشيه، آلات، وعمل.. ومن خلال خبرتي في التزوير خلال خمسين سنة، في السابق كانت تكلفة طباعة ألف ليرة بحدود عشر ليرات. بعد ذلك أخذت النفقات تزداد، عشرون ليرة، ثم مئة، وفيما بعد ذلك وصلت التكلفة إلى مئتي ليرة. ومع ذلك ألف شكر لك يا رب مازلنا في مرحلة الربح، لذلك كنت قد علقت لوحة في غرفة الشغل خلف طاولتي تحمل عبارة "الكسّاب حبيب الله". لكن بعدها أخذت

النفقات تزداد إلى درجة عدم الاحتمال، ازدادت أسعار جميع المستلزمات، وهكذا وصلنا إلى فترة أضحت فيها طباعة الألف ليرة التي كانت تكلف عشر ليرات وتربح تسعمئة وتسعين ليرة، تكلف تسعمئة وتسعين ليرة لنربح عشر ليرات فقط، هذا يعني أن الأمور باتت معكوسة، على كل حال مهما كان الربح ضئيلاً، فهذا يعني أننا في مرحلة الربح لذلك اقتنعنا بهذا القدر، يعني صرنا نفكر بالربح المركب. سابقاً كنا نطبع مئة ورقة ذات الألف والآن بتنا نطبع ألف ورقة. لسنا الوحيدين في ذلك، بل مطبعة الدولة أيضاً أخذت تحذو حذونا، وهكذا، كلما ازدادت النفقات رحنا نطبع أكثر.. ومن هنا ازدادت الأوراق النقدية في الأسواق التي باتت كالذباب الأسود في تكاثرها. وازدادت الأسعار يا سيادة المدير إلى درجة أن طباعة الألف ليرة، باتت تكلف ألفاً ومئتي ليرة. وهكذا صرنا نخسر في كل ألف ليرة مئتي ليرة.. وهذا ما لا تستطيع الاستثمارات الخاصة تحمله، فقط الدولة "ليحمها الله" تستطيع تحمله، ولو أننا طبعنا ذات الخمسين أو المئة، لأفلسنا تماماً لا محال. وأخيراً وبما أن الدولة لم تعد تستطيع تحمل الخسارة، لذلك قامت بتصغير حجم العملة كي تخفف من نفقات الطباعة. فأصبحت ذات الخمسمئة ليرة بحجم الطابع، ومع ذلك كنا نخسر، فأوقفنا طباعة ذات الألف ورحنا نطبع ذات الخمسة آلاف، لكن طباعة الخمسة آلاف لها خطورتها الفائقة بالمقارنة من طباعة ذات الألف، وإمكانية اكتشافها أكبر. لكن لا سبيل أمامنا غير ذلك. وهكذا ومنذ تسعة أشهر أقوم بتزوير ذات الخمسة آلاف.

سأله المدير:

ماذا تريد بعد؟، طالما أنك تكسب من ذلك.

- طالما أنني في مرحلة الربح، فلِمَ وجودي هنا إذاً يا سيادة المدير؟. عندما بدأت بالتزوير قبل خمسين عاماً كنت أطبع ذات العشر ليرات، وبعد ذلك خمسين ليرة، ومن ثم المئة ليرة، لنطبع فيما بعد خمسمئة ليرة، ومن ثم ألف ليرة. على زمان معلمي رحمه الله كانوا يربحون ليس في طباعة الليرة بل في صك الخمسين قرشاً. أما الآن فإننا نطبع ذات العشرة آلاف ومع ذلك فنحن في خسارة، بالمختصر أشتري المواد الأولية بمئة ألف ليرة، وإذ بي أطبع بهذه المواد ثماني ورقات ذات العشرة آلاف هذا يعني أنني في خسارة عشرين ألف ليرة. في هذه المرة أقوم بشراء المستلزمات بثمانين ألف ليرة، وبينما أقوم بطباعة ذوات العشرة آلاف ليرة خلال ثلاثة أيام، إذاً بالأسعار قد ارتفعت خمسين بالمئة.. وهكذا تشتري مواد أولية بثمانين ألفاً، لتطبع أربع ورقات ذات العشرة آلاف. فأنا راضٍ فيما لو كنت أستطيع تحصيل رأسمال الشغل. فهذه مهنتي التي عملت بها منذ سنوات. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نحصل على ذلك، فكما قلت لك أنا أحب مهنتي ولا أستطيع التخلي عنها.. كيف لي أن أتخلى عن مهنة أعيش منها منذ خمسين عاماً؟ ولا أجيد غير مهنة التزوير كي أعمل بها يا سيادة المدير؟. بالمختصر المفيد أقوم بطباعة عشر ورقات ذات العشرة آلاف ليرة، وبينما أدفع بها إلى الأسواق تكون الأسعار قد ارتفعت ثانيةً أربعين بالمئة، خمسين بالمئة، هذا يعني أننا في خسارة دائمة. وكما تعرف فإن طباعة العملة ليست تصويراً فوتوكوبياً كي تقوم بها بسرعة، فالعملية تتطلب يومين، ثلاثة أيام، فالمئة ألف ليرة المزورة خلال هذه الفترة تصبح خمسين ألف ليرة، هذا يعني أن لحاق العملة المزورة بالعملة الحقيقية مستحيل، علماً أن عملتنا المزورة أكبر قدرة

من العملة الحقيقية... وهكذا وصلنا إلى مرحلة خسرنا فيها كل شيء وأنفقنا ما تحتنا وما فوقنا. لكن ما العمل، فالشغل شغل؟. كم هو رائع أنني ادخرت ذات يوم واشتريت بعض الأشياء لذلك رحت أبيعها كي أستمر في العمل، خاصة أن الربح شريك الخسارة. بعت بعض الشقق التي كنت أملكها وبعض المحلات، حتى السيارة بعتها، كل ذلك من أجل الاستمرار في العمل، وأخيراً بقيت أنا وآلة الطباعة. منافسة الدولة مستحيلة يا سيادة المدير... آه لو أنني من وقتها غادرت إلى أي مكان من هذا العالم، إلى أمريكا أو بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا يوم كانت الإمكانية متاحة في حينها. لكن ماذا بوسعي أن أفعل الآن، وقد مضى قطار العمر وأصبحت في السابعة والستين. وإلى أين أذهب كي أبدأ من الصفر في التزوير.. لم يعرفوا قيمتي في هذا البلد يا سيادة المدير... لم يبق في حوزتي سوى شقة صغيرة. لو بقيت في الخارج لصرفت ثمنها في التزوير، لأصفق فيما بعد بكلتا يدي للهواء. لذلك قلت لنفسي أستطيع العيش بأجرة هذا البيت الصغير في السجن لذلك قمت بما يجب لإدخالي إلى السجن، وهكذا ألقيت بنفسي في السجن، هكذا يا سيادة المدير لا يمكننا القيام بالتزوير في دولة يكون فيها التزوير خاسراً، لكن هذا يعني أنه لا يمكن القيام فيها بأي شيء. لا.. لا هناك شيء ما يمكن القيام به، لكن بعد هذا العمر لا يناسبني.

أشياء أمريكية في مزاد علني

أتى لزيارتي صباح أمس وقال:

- ألم تنهض من فراشك بعد.

-الطقس بارد، ولا توجد لدي مدفأة..

-اشرب شاياً ساخناً.

-قطعوا الغاز عني، لا سكر ولا شاي حتى.

- مفهوم، مفهوم... يبدو أنك لن تصبح رجلاً. أتريد أن أجعلك رجلاً غنياً في لحظة واحدة.

-رجاءً اذهب إلى شغلك، لقد وصلت الأمور إلى أرنبة أنفي...

-إني جاد في ما أقول، خلال عشرة أيام سأجعلك غنياً، ادعُ لي.

بعد الآن أستطيع الحديث إليكم بهدوء. اقتنعت بما قاله صديقي كمال، ذهبنا إلى بيت أبي، وبحجة ما أخرجنا أثاث البيت إلى الطريق، أحضر كمال سيارة شاحنة، حملنا جميع ما لدى أبي من أثاث وأشياء قديمة ونقلناها إلى بيتنا. حزن أبي كثيراً عندما عاد إلى البيت ووجده فارغاً، ووقع في حيرة ظناً منه أن أحدهم سرق محتويات البيت. ومن الفاعل يا ترى؟..

في اليوم الثاني نشرت الصحف الإعلان الذي سدد قيمته كمال:

"مزاد علني لبيع أشياء خبير أمريكي"

سيبدأ مزاد علني لبيع أشياء تخص الخبير الأمريكي العريف

السيد (أرنولد باي) النادرة النفيسة، وذلك في ٣١ تشرين الثاني من عام ١٩٥٤ الساعة العاشرة... في...

الفوضى التي دبت في بيتي ذلك اليوم لم أشاهد لها مثيلاً في المسرح أو السينما ولا في الحفلات الموسيقية، سيارات خاصة ملأت حارتنا، لم يعد يتسع بيتي لهذا العدد الهائل والحارة أيضاً كذلك، أية سيدات وأي رجال..!!.

الفراء الذي كانت ترتديه إحدى السيدات كان أغلى من كل محتويات بيتي بما فيه أنا، لم أكن أتوقع ذلك.

قلت متأففاً:

- لقد فضحت.

- هيا انتظر لترى.

بدأ المزاد العلني. وكمال في الوسط يدير المزاد، راح يصرخ:

-كنبتان وستة قلاطق ممهورة باسم كوهلر.

و في الحقيقة لم نجلب من بيت أبي قلاطق بل أشياء مكسرة..

تابع كمال نداءه:

- سيداتي، سادتي، من يود غرفة جلوس ممهورة باسم كوهلر.. غرفة نفيسة للخبير الأمريكي العريف السيد (أرنولد باي)...خمسة عشر ألفاً.

ظننت أن القهقهة ستملأ المكان وإذا بصوت حاد يسمع من بعيد:

- خمسة عشر ألفاً وخمسمئة ليرة.

- ستة عشر ألفاً.

- سبعة عشر.

- عشرون.

رمقني كمال بنظرة جانبية.

- يا الله، يا سادة، هل من مزيد؟، عشرون ألف ليرة، أشياء خبير أمريكي، "على أونه، على دوي"، بعت بهذا المبلغ، ألف مبروك.

هكذا بيعت قلاطقنا القديمة بعشرين ألف ليرة، ولو عُرِضت على تاجر الأشياء المستعملة لما اشتراها بعشرين ليرة، تم شراؤها منذ أيام السلطان رشاد، رقعة فوق رقعة، ومسماراً بجانب مسمار، لا يمكن استعمالها بتاتاً.

رفع كمال صوته:

- غرفة طعام (السرجنت ارنولد) الفنية، هل هناك من مزيد على هذه الغرفة الأمريكية الفريدة؟. لنبدأ بتسعة آلاف..

-عشرة آلاف..

-عندي بأحد عشر ألف ليرة.

بدأ المزاد على طرابيزة قهوة صغيرة، إحدى قوائمها مكسورة وحصيرتين وكرسي من الخيزران وثلاثة كراسي خشبية وراح يتزايد الرقم ألفاً بعد ألف، دخلت سيدة أنيقة ومترفعة ومتبرجة تلتقط أنفاسها تسأل عن طقم الجلوس الذي بيع قبل قليل:

- قالوا إنه قد بيع.

- واه.. واه!! خسارة، من اشتراها؟.

-السيدة سانا.

-اشترتها كي تغيظني، لذلك سأشتري هذه الغرفة ولتنفجر.

و فجأة راح أحدهم يصرخ وكأنه يعلن عن خطر ما:

- بعشرين ألفاً!.

زادت عليه السيدة:

- عندي بواحد وعشرين ألف ليرة.

قال لها الرجل الذي كان بجانبها:

- لا يساوي هذا المبلغ يا زوجتي العزيزة.

-ماذا؟.. لا يساوي؟.. أمان! يا غالب لا يوجد لديك ذرة من الذوق.. هذه الأشياء التي استعملها خبير أمريكي... خمسة وعشرون:

-بخمسة وعشرين.

على ما يبدو أن قلب كمال قد لان لذلك حاول إيقاف المزاد وقال:

- بخمسة وعشرين سأبيييييع ... بعت..

و إلا كان سيتابع المزاد لبيع الطربيزة والكراسي المكسرة إلى مئة ألف ليرة.

- سيداتي وسادتي ضوء عمودي "أولتراماتيك"!... بألف!...

لم تكن هذه الأشياء من بين أغراضنا، لكن كمال قام بإضافة "سوكة" مصباح كهربائية على عكاز والدي، وباعها وكأنها "أولتراماتيك" بثلاثة آلاف ليرة.. أما السيدة التي اشترت هذه "الأولترامتيك" فقالت متفاخرة:

- إنها ستناسب الصالون في بيتنا.

الرذالة الحقيقية بدأت عندما عرض فرشنا، أدرت رأسي نحو الجدار عندما رأيت القطن المتسخ البارز من شقوق القماش، تصوروا أنه عرض الفرش المتسخة للبيع.

- سيداتي، سادتي!.. فرش المستر (أرنولد) معروضة للبيع... فرش هوليود الفاخرة، مع وسائد صغيرة... بألفين وخمسمئة ليرة..

-ثلاثة آلاف.

باعها بخمسة آلاف ليرة. بعدما باع جميع الأشياء التي أحضرناها من بيت أبي، بدأ بالأشياء المهملة والمكسرة التي كانت في بيتنا، ليست هذه الأشياء وحسب، بل باع ملابسنا أيضاً، لم يبق لدينا أي شيء، ومع ذلك لم يخل البيت، وفي لحظة ما اقترب مني كمال، وأمسكني من يدي ليسحبني إلى الحمام ويقول لي:

- هيا اخلع!..

- وماذا؟.

هيا اخلع بسرعة سأبيع ملابسك، والداخلي أيضاً. ستشتري الملابس الجديدة فيما بعد.

خلعت كل ما يسترني حتى أصبحت كما ولدتني أمي!!، وخرج كمال وأقفل علي باب الحمام.

كنت أسمع صوته:

سيداتي وسادتي المحترمين بنطال الخبير الأمريكي العريف (أرنولد) من القماش "لاستكوتن" مئة في المئة ركبتاه مزينتان بقطع من "الغرنيتور"... بخمسمائة..

- ستمائة.

- سبعمائة.

بعد ذلك أتى الدور على ملابسي الداخلية:

كيلوت العريف أرنولد... مستعمل لمرتين فقط. بخمسين ليرة.

سمعت صوتاً نسائياً:

- حقيقة لا يساوي هذا المبلغ، لكن لو استعمله خمس عشرة مرة لدفعت هذا المبلغ عن طيب خاطر.

- سيداتي وسادتي... مناديل المستر (أرنولد باي) الفاخرة... بثلاث ليرات.

-بخمس ليرات.

-بسبع.

- بعشر ليرات أبيع... بعت. انتهى المزاد أيها السيدات والسادة..

سمعت صوت ضجيج وحركة غير طبيعية، كل واحد يأخذ أغراضه لينقلها. وبعد صمت دام نصف ساعة، سمعت صوت كمال من خلف الباب:

- ربحنا مئة وسبعة وأربعين ألف ليرة.

- حياك الله يا كمال! _ صرخت بأعلى صوت - افتح الباب بسرعة، لقد تجمدت من البرد.

- انتظر قليلاً سأذهب لأشتري لك ملابس جديدة..

خرج كمال، بعد ساعة، وبعد ساعتين رحت ارتجف من البرد.

رحت أنط ويداي بين فخذي، غطى الظلام المدينة، ولم يعد كمال.

منذ أيام وأنا في الحمام سأتجمد من البرد، لو كسرت الباب وخرجت لألقي القبض علي متهماً بالجنون، و بذلك سأهان، ولو كان موقد الغاز مفتوحاً لانتحرت. هذه القصة أكتبها من الحمام، لكن عجباً، ماذا أصاب كمال؟ هل صدمه الباص أم الترامواي أم أصابه مكروه؟، الحقيقة أقول إنه صديق جيد.

المساعدة الصديقة

يُعدَّ هذا الحادث حدثاً سياسياً عالمياً. إلا أنه لم يدخل التاريخ عامة ولا تاريخ السياسة العالمية. فمهما كانت الكتب التاريخية صادقة في كتابتها إلا أنها تغفل بعض الأحداث ولا تذكرها بتاتاً. وهذه واحدة من الحوادث التي لن تذكرها كتب التاريخ قط.

فكما هو معروف فإن دولاً عديدة حصلت على استقلالها، وهكذا راحت تتكون دول جديدة وبعضها تتشكل في أيامنا هذه، لذلك فالأطالس تشيخ بسرعة وتهرم لأن خارطة العالم السياسية في تبدل وتغير دائمين.

حتى أن مستوى مدرِّسي مادة الجغرافيا في معرفة أسماء هذه الدول وأسماء عواصمها ليس بالمستوى المطلوب.

هناك دولة في أفريقيا، أفضل عدم ذكر اسمها، ولدت وخرجت من رحم أمها حديثاً. بداية قام هؤلاء الزنوج بتشكيل حكومة من أولئك الذين قادوا حرب الاستقلال والتحرر، وعقدت أول جلسة لرئاسة مجلس الوزراء، ولعل من أهم المسائل الواجب التوقف عندها أنه تم إحداث وزارة للاقتصاد.

تتسم هذه الدولة وشعبها بالفقر المدقع. لا تمتلك مصادر للمودوعات النقدية، وإضافة إلى ذلك هناك قوى خارجية تبحث عن كل السبل لإخضاع هذه الدولة الحديثة اقتصادياً.

كذلك تحدث في الجلسة المذكورة وزير الزراعة والصناعة عن

الحاجة النقدية من أجل تلبية المتطلبات المعيشية الضرورية.

بعد هذه النقاشات تم اتخاذ القرار بتكليف وزير المالية بإعداد موازنة الدولة الأولى بعد إيجاد المصادر النقدية.

و في الاجتماع الثاني لرئاسة مجلس وزراء هذه الدولة الأفريقية قدم وزير المالية المعلومات الكافية والوافرة عن المصادر المالية التي يمكن تأمينها من بوساطة القروض والمساعدات الخارجية من أية دول كبيرة يمكن طلب القروض والمساعدات منها.

و عبر وزير الخارجية عن استحالة الحصول على المساعدات والقروض من تلك الدول لأنها لا تمنح القروض والمساعدات حباً للشعوب، بل هي تقدم القروض لمساعدة الشعوب وخدمتها ظاهراً، لكن هدفها هو وضع النير على رقاب الشعوب واستغلالها، وأكد أن على الدول الفقيرة المستقلة حديثاً أن تنتبه لهذا الشرك الذي نصبته خصيصاً لإيقاع بها ليس غير.

سأل رئيس الوزراء وهو رئيس أكبر قبيلة في بلده قائلاً:

- إذاً ما هو الحل برأيكم؟.. وماذا تقترحون علينا؟..

و جاء الاقتراح على النحو التالي:

توجد في أفريقيا الجديدة دولة إسلامية كانت فقيرة في الماضي. بواديها واسعة مقفرة غير مستصلحة، فلم يكن بالإمكان تربية الحيوانات فيها.. ولم يكن فيها صناعة أيضاً. لذا كان شعبها يعيش في ظروف قاسية. وذات يوم اكتشف النفط في هذه البقعة المقفرة، بمخزونات كبيرة جداً. وهكذا دخلت هذه الدولة الفقيرة بفضل النفط إلى مصاف كبريات الدول الغنية.

لا توجد علاقات سياسية مع هذه الدولة المسلمة، ولم يرسل إليها السفراء بعد، إلا أن ما عُرِفَ عنها أنها تقدم المساعدات للدول حديثة الاستقلال.

سأل رئيس الوزراء مستفسراً:

- و هل كميات النفط فيها كبيرة؟.

أجابه وزير الخارجية قائلاً:

- ليس الأمر كما هو معهود، إذ لم يكتشف النفط في تلك الدولة بالمعنى العام بل تفجرت عيونه... تعددت الأقاويل حول اكتشاف النفط، لكن حسب الجاسوسية التقنية يقال أنه ذات يوم كان زوجان أوربيان يتمشيان في الصحراء، ومثل أي زوجين راحا يتشاجران، غضبت الزوجة وضربت بكعب حذائها الرفيع على الأرض فغاص الكعب في الرمال لينطلق سائل أسود لزج، ظن الزوج أن هذا السائل هو بول زوجته الغضبى، فالتفت ليضرب الأرض بعكازه وعندما انغرز العكاز في الأرض انطلق السائل نفسه.

هكذا تم شرح كيفية اكتشاف النفط في تلك الدولة الإسلامية.

سأل رئيس الوزراء:

- و من يترأس هذه الدولة؟.

قام وزير الخارجية بالشرح حسب المعلومات المتوفرة لديه، وأنهم كانوا لا يهتمون لتصرفاتهم المشينة، وأنهم - زعماء تلك الدولة - كانوا ينفقون المال بدون حساب لكثرته، لكنهم وهذا المهم، كانوا يساعدون الدول المستقلة حديثاً. اتخذ القرار لتشكيل مجموعة كبيرة لزيارة تلك الدولة لطلب المساعدة وإقامة العلاقات الدبلوماسية

KMH

مرةً ثانية عندما يسمح لي الموت ويمنحني إجازة سأعمل جاهداً لإنهاء جميع الكتابات التي أنا مدين بها للدنيا، أعرف تماماً أن هذا الطلب غير منطقي، ومع ذلك فإني لا أرغب أن أموت وأنا مَدين للدنيا.

وهكذا رأيتم أن هذه الكتابة ليست قصة قصيرة، بل شرح عن زيارة الموت لي في تلك الليلة كي يلفت انتباهي.

تشفيقيه ٧ آذار ١٩٩٢

واقعة مضحكة جداً

كان ينتظر أن تغط زوجته في نوم عميق، كي يقوم، إذا ما غفت، إلى ما كان يفعله منذ عدة ليال، فيتسلل من فراشه كي يفكر ويخطط فيما سيقوله لذلك الغني الذي سيطلب منه قرضاً. وكان هذا أمله الأخير.

و لكي تظن زوجته أنه غفا حاول أن يتسمر تحت لحافه كلوح من الثلج، لكن لسوء الحظ، لم يجد إلى ذلك سبيلاً، إذ راح يتقلب تارة إلى هذا الجانب وتارة إلى ذاك.

كان على ثقة من أن زوجته ستقول له "ما بك يا روحي تتقلب كثيراً". مسكينة هي أيضاً فمنذ ليالٍ لم تذق طعم النوم.

- ماذا تقولين، هل أذهب إليه وأطلب منه؟.

خلال الأيام الماضية وجه هذا السؤال إلى زوجته مئات المرات.

تجيبه زوجته بصوت ناعس:

- هيا حاول أن تنام الآن، وغداً صباحاً نتحدث في هذا الموضوع !.

كيف له أن ينام وهذا اليوم أيضاً كانت صالة المسرح شبه فارغة إذ أنهم قدموا عرضاً أمام حضور لم يتجاوز عددهم الصفين من المقاعد، بل إن هذين الصفين لم يمتلئا إذ كان فيهما بعض المقاعد الشاغرة. نظر إلى المشاهدين في أثناء العرض وابتسم، وهو في أشد اللحظات جدية. لم يكن يؤدي دوره على خشبة المسرح كإنسان، بل كرجل آلي، وفجأة لمعت في مخيلته فكرة غريبة، آه لو يحصل عراك

بين المشاهدين والمسرحيين، وبما أن عدد الممثلين أكبر من عدد الحضور فإنهم سيضربونهم ضرباً مبرِّحاً.

سألها ثانية:

- ماذا تقولين هل سيقرضني؟.

أجابت زوجته قائلة:

- يا روحي اطلب منه، فإن أعطاك فهذا حسنٌ، وإن لم يعطك تُلغِ الفكرة من رأسك وتسترح.

- نعم أنت على حق فيما تقولين، سأذهب وأطلب منه.. لكن كيف سأطلب؟.. عيب علي القيام بذلك.

لم تجبه زوجته.. لأنه كرر فكرته ثلاث مرات منذ عودتهما من المسرح في الثانية ليلاً.

كانت تعرف زوجها وطريقة تفكيره، فهو يظهر نفسه مقتنعاً بأفكار الآخرين كي يصدقوه إذا ما طرح عليهم فكرة ما.

وكي يكتسب الدعم والجرأة لم يكتف بطرح الأسئلة على زوجته بل راح يسأل منذ خمسة عشر يوماً كل من حوله من أصدقاء وخلان.

منذ ثلاثة أعوام وأمور مسرحه تسير من سيئ إلى أسوأ. فقد بلغ السيل الزُّبى ووصل نصل السكين إلى العظم... ولم يعد الأمر يطاق.

سبق أن قدم هذا الرجل الغني يد العون إلى صاحب صالة أو صالتين مسرحيتين خاصتين، لقد كان غنياً إلى درجة أن كل هذه المساعدات التي قدمها لم تؤثر في وضعه المادي بتاتاً.. إضافة إلى ذلك فهو لم يكن يود أن يطلب مساعدة دون مقابل، بل قرضاً، وليسأل من يشاء هل تأخر عن سداد ديونه حتى الآن. كان يسدد ديونه بشكل

كامل. يكفيه أن ينقذ مسرحه في هذه الظروف العصيبة.

- هاه؟...ماذا تقولين هل أذهب وأشرح له ظروفي؟.

كان ينتظر أن تقول "طبعاً ... بالتأكيد"، وكان إذا ما سمع هذه العبارة يسأل قائليها "ألن يكون عيباً" مظهراً بذلك عفة نفسه وشموخه.

- يا روحي، وما العيب في ذلك؟ فأنت الممثل الأكثر شهرة، ممثل ناجح والجميع يعرفونك، وليس ثمة من لم يسمع باسمك ... لكن ماذا لو سمع أحدهم بأنك ذهبت وطلبت المساعدة من رجل أعمال؟!.. يا روحي من ومن أين سيسمع وسيعرف.. لا؟ سيسمعون. إيه من يود أن يسمع فليسمع.

كان يتصل بجميع أصدقائه ومعارفه بوساطة الهاتف، لأنهم إن لم يسمعوا منه فسوف يسمعون من الآخرين ويشمتون به، لذلك فمن الأفضل أن يعلمهم مسبقاً. لأن تصرفه إذا كان معيباً حقاً فيكون قد ألقى بجزء من هذا العيب على عاتق كل من شجعه، وهكذا لن يستطيعوا أن يشمتوا به.

- يا هوه من الصعوبة بمكان أن تذهب وتطلب قرضاً من شخصٍ لا تعرفه..

أجابت زوجته في لحظة إغفاءتها قائلة:

- أيعقل أنه لا يعرفك؟..

تكبره كثيراً هذه الكلمات، لأنه من حيث المعرفة فلا بد أنه يعرفه، إذ إنه قد كُتب عنه الكثير ونُشرت صوره، وربما كان قد زار مسرحه وشاهد عروضه عدة مرات.

حتى أنهما تعارفا ذات ليلة... لكن لمَ لم يتقرب منه جيداً تلك الليلة طالما أن الفرصة قد سنحت؟.. كان متعباً للغاية، علاوة عن ذلك فقد كان الوقت متأخراً ولا بد من أن يستيقظ باكراً كي يجري تدريباته المسرحية "البروفة". كان يقف في موقف الباص عندما توجهت إليه بسرعة سيارة غريبة وتوقفت بجانبه مصدرة صوتاً شديداً من فراملها، ولو لم تتوقف لسحق بين السيارة والجدار. عندما انفتح باب السيارة وجد نفسه وسط قهقهات عالية، الهواء وبرودة الليل المنعشة كانا يحملان صوت القهقهات من نوافذ السيارة وأبوابها، ثلاث نساء ورجلان كانوا داخل السيارة. عرف البروفيسور الجالس خلف المقود. كان هو ذلك الذي اندفع بالسيارة نحوه بقصد المزاح. عانقه وهو منتشٍ من تأثير الشراب. تَعَّرفَ في البداية على الرجال الجالسين داخل السيارة، هذا يعني أنه من النوع الذي لا يعير النساء انتباهاً، قام البروفيسور بتقديمه إلى صديقه بكلمات تبجح وعبارات مجاملة، الفنان الذي نفتخر بوجوده... فنان كبير... ذو قيمة عالية.

هذا الشاب الذي تعرف عليه تلك الليلة هو نفسه رجل الأعمال الذي كان يفكر منذ خمسة عشر يوماً كيف سيطلب منه ديناً. جذبوه من يديه كي يركب معهم في السيارة قائلين "تعال معنا، هيا" كي يلهوا معاً حتى الصباح، كانوا رجلين وثلاث نساء، وهذا يعني أن إحداهن ستكون من نصيبه، راح يمعن النظر فيهن، ثلاثتهن جميلات وكأنهن دمىً مصنوعة من البلور، فلو وقعن على الأرض فسيتكسرن لا محال، شعورهن كانت تتطاير من فتحة السيارة العلوية وكأنها ريش طيور ملونة مثبتة على رؤوسهن. كن يضحكن

باستمرار وكأنهن دمى ميكانيكية ضاحكة ستتوقف عن الضحك في حال انتهت تعبئتهن الميكانيكية.

أياً كانت حركاتهن الأخيرة، وتصرفاتهن، فقدماه لم تطاوعاه على مرافقتهم.. قد يكون السبب تجمد قسمات الضحك على وجه إحداهن، أو أنه ظن أنهن سيبكين بعد قهقهاتهن غير الطبيعية.

لم يركب في حياته مثل هذه السيارة قط، داخلها يشبه صالة فاخرة. وعلى الأغلب صنّعت خصيصاً له. إنهم يشربون المشروبات الكحولية في بار أميركي مصغر.

لو فكر يومها أنه سيطلب ذات يوم من رجل الأعمال ذلك قرضاً، لرافقهم في مجونهم ولهوهم حتى الصباح، ولحاول التقرّب إلى رجل الأعمال، لكنه لم يأبه لهم ولم يعرهم يومها أي اهتمام، لأن أعماله كانت تسير على ما يرام. مسرحه يعج بالحضور، ويدفع حقوق المؤلف بشكل كامل دون أي تلكؤ. وليس مديناً تجاه أي من ممثليه. حتى أنهم كانوا مسرورين منه كثيراً وليس كما هو عليه الحال الآن.

بدأ يلقي على نفسه مسؤولية فشله، إنه يكاد أن يشك بفنه، أين هو تصفيق الحضور الذين كانت صالة مسرحه تضيق بهم، حتى أنه كان يشعر بالدوار في رأسه وسط هذا التصفيق وكأنه مستلق على أمواج البحر، خاصة أنها استمرت ذات مرة عشر دقائق، ووسط هذا التصفيق، طلب فتح الستارة ليظهر الممثلون أمام الجمهور بعد انتهاء العرض أكثر من عشرين مرة.

حسناً وماذا الآن؟..ما الذي جرى حتى انعكست الأمور خلال

KMH

ثلاث سنوات؟.. هل سئم المشاهدون منه؟... لكن كيف ذلك وهو لم يتجاوز الخمسين من العمر؟... يعني كيف يتوقف عمله الفني وهو في أكثر مراحل عمره عطاءً؟.

فكر بهجر المسرح، لكن ماذا عساه أن يعمل بعد ستة وثلاثين عاماً أمضاها وهو يستنشق غبار خشبة المسرح؟، وكم من الثواني سيطرت عليه فكرة الموت أو الانتحار، وفجأة راودته فكرة، ولكي يطردها حاول هز رأسه عدة مرات.

لا، لا لو وجد من يقرضه بعض المال لاستطاع إعادة الأمور إلى مجاريها، بل لعادت أفضل من السابق.... اندفع ثانية في حديثه:

- ماذا تقولين يا حبيبتي هل أذهب إليه غداً صباحاً؟..

لم تجبه زوجته، ومن طريقة تنفسها يتبين أنها نامت، سكن في مكانه بلا حراك كي يغادر سريره دون أن يوقظها، ثم انسحب رويداً ونزل عن سريره، ليدخل غرفة أخرى.

راح يكرر ثانية ما سيقوله لرجل الأعمال، ذات الكلام الذي كان يجري تدريبات عليه منذ أربع ليالٍ، وكأنه يقوم بحفظ دور مسرحي يحبه كثيراً.

مهما حصل فسيذهب غداً، وكما قالت زوجته فإن منحه القرض المطلوب فيكون قد حل مشاكله، وإن لم يمنحه فهو بذلك يكون قد أراح رأسه وفكره. لكن ماذا عليه أن يقول له. بداية لا بد أن يقتضب الحديث لأن رجال الأعمال يحبون الاختصار في الكلام، ولا وقت لديهم للأحاديث الطويلة، لذلك فلا بد من إيصال طلبه في عدة جمل، وأية حال فلن يتملق كي يظهر إمكانياته. باختصار،

سيقول له أن أموره صعبة وإنه في حاجة إلى بعض الأموال، ومعروف عنه أنه سبق وأن ساعد مسارح خاصة أخرى. وهل سيقرضه كونه من عشاق الفن والمسرح؟.

و لا بد أن يثق بأنه خلال فترة قصيرة سيعيد إليه ما اقترض منه.

ثم قال للممثل الظاهر على المرآة:

- جميع الأمور جاهزة تماماً يا صديقي.

"إنه دور العمر... لكنني لن أقوم بهذا الدور على خشبة المسرح... بل سألعبه على أرض الواقع.. وهكذا أصبحت الحياة خشبة مسرح... مسرحية العيش.. وهو سيقوم بدور الممثل الأول في تلك المسرحية".

وحسب أقاويل أصدقائه لن يحتاج إلى الحصول على موعد للقاء رجل الأعمال، لأنه يكون في مكان عمله في الساعة الثامنة والنصف من صباح كل يوم، لذا فلا بد أن يذهب في هذه الساعة ويطلب من سكرتيره اللقاء به... فنان مشهور، إذن سيوافق على لقائه فور سماعه باسمه.

راحت الساعات تئن في مسيرها والزمن يتباطأ في مشيته، نهض وحلق ذقنه ولبس أفضل ما عنده، ثم قام بعمليات المكياج الضرورية، لكنها لم تكن هذه المرة لتقديم مسرحية، بل من أجل حياة حقيقية، ثم كتب لزوجته النائمة ورقة ووضعها فوق "الفيترينة" كتب فيها:

حبيبتي:

لوتركت الأمور لي لما ذهبت، أما ذهابي الآن فقد كان تلبية

لإصرارك على الذهاب، لذلك خرجت من البيت باكراً، كي أتمكن من لقائه في هذا الوقت.

حتى لو استدان منه فسيقول لزوجته "ذهبت نزولاً عند رغبتك"، وهذا الكلام لن يكون لزوجته فقط بل لأصدقائه أيضاً "لو لم تطلبوا مني لما ذهبت إليه حتى لو مت، لكن عندما طلبتم...."

و هكذا سيتخلص من الخجل.

خرج من بيته في السادسة والنصف، تسكع وجاب الشوارع لمدة ساعتين، وفي الثامنة والنصف تماماً كان في مكان عمل رجل الأعمال إياه. عرفته فتاة قسم الاستقبال مباشرة وسألته باسمه عن طلبه، وكيف لا يعرفونه، بالتأكيد سيعرفونه... وهو نجم متألق، ليخرج رجل الأعمال ذاك إلى الشارع، لنرى كم شخصاً سيعرفه؟.

أعلمته فتاة الاستعلامات أنه لم يأت بعد، كيف ذلك، وهو الذي يكون في مكان عمله منذ الثامنة والنصف؟.. نعم هو كذلك، لكنه كان مسافراً في مهمة إلى الخارج وسيأتي في العاشرة.

"تفضلوا يا سيدي في العاشرة، وهاأنذا أكتب اسمكم في رأس القائمة وسأعلم السكرتيرة بقدومكم".

سار ثم دخل حديقة، واشترى كعكة "سميد"[1]، فمنذ زمن طويل لم يأكل كعكاً من هذا النوع. مرة أخرى راح بعض المارة يلتفتون نحوه ليكسبوا رؤيته حتى أن منهم من كان يلقي التحية عليه.

كان نهاراً جميلاً، والعصافير تزقزق بسعادة محيية هذا النهار الجميل، وهو ما يزال يذكر ما سيقوله عند اللقاء.

---

[1]-السميد نوع من أنواع الدقيق ، أساسه قشرة القمح

في الساعة العاشرة تماماً كان أمام باب رجل الأعمال:

- تفضل يا سيدي هو في انتظارك.

سارت أمامه إحدى الفتيات ترافقه إلى مكتب رجل الأعمال، دخلا المصعد وصعدا إلى الطابق الرابع. فتحت الفتاة الباب ليدخلا صالة فسيحة، كانت صالة جميلة تلفت النظر، مفروشة بأثاث فاخر جداً، وكان رجل الأعمال جالساً خلف طاولته، وفتاة غاية في الجمال تجلس أمام الطاولة، كانت على الأغلب هي سكرتيرته. التدريبات التي أجراها خلال الأيام التي خلت كانت مخصصة لشخصين هو ورجل الأعمال فقط، و لم يعط السكرتيرة دوراً في ذلك العمل، حتى أنه لم يفكر في هذا الموقف بتاتاً، وما داما جالسين أحدهما قبالة الآخر وهما صامتان، فلن يتحدث أمام تلك الفتاة بيسر وراحة.

نهض رجل الأعمال من خلف طاولته واتجه نحوه مادا يده للتحية:

- أرجو أن تكونوا بخير يا سيدي.

كم هو رجل لطيف، كان يتحدث مع الفنان ذاكراً اسمه حتى.

قد يخرج سكرتيرته من هناك.

- يا سيدي أود أن أتحدث معكم في أمور شخصية.

- تفضلوا أنا أسمعكم.

إيه، لتكن السكرتيرة معهم، فهو سيتحدث معه متجاهلاً السكرتيرة وكأنها لم تكن...

مثل هذا الدور قدم آلاف المرات، وهو الآن سيقدم هذا الدور بعدما أجرى تدريباته خلال الأيام الماضية.. إلا أن الحديث لم يكن

تلك الجمل الخمس التي تدرب عليها خلال الفترة السابقة، إذ إنه بدأ بامتداح حب رجل الأعمال للمسرح، إلا أن هذا الامتداح لم ينته حتى يبدأ بموضوعه الأساسي، وبينما كان يتحدث راح ينظر إلى رجل الأعمال ذاك الذي التقاه داخل السيارة في تلك الليلة مع ثلاث فتيات يشبهن الدمى الزجاجية، لكن ذلك الرجل كان أسمن قليلاً، قد يكون نحف قليلاً، ويبدو أطول من ذلك الذي رآه، فعندما ينحف الإنسان تبدو قامته أطول. على كلٍ شاهده داخل السيارة ليلاً ويومها لم يمعن النظر فيه جيداً...

امتدحه، وبالغ كثيراً في امتداحه متجاوزاً بذلك النص، وكلما امتدحه كان الرجل الجالس خلف الطاولة يعتصر خجلاً.

و في النهاية بدأ بموضوعه الأساسي، حسب مشروعه كان عليه تلخيص مجمل وضعه بجملتين قصيرتين، أما الآن فراح يشرح بإسهاب ممل. على الرغم من أنه لم يكن يحب التوسل والترجي، لكن على ما يبدو فإنه قد بدأ بذلك، كان من المفترض أن يشرح وضعه بوضوح تام، اغرورقت عينا رجل الأعمال فكاد يبكي، هذا يعني أنه نجح في تقديم دوره، فمع ذلك لم يكن مسروراً من نفسه. حسناً، سيعطيه الرجل على ما يبدو لكن كم سيعطيه؟..

استقام رجل الأعمال في جلسته، ثم قطع حديث الممثل قائلاً:

- عذراً، لم أعرفكم بنفسي.

- أرجوك يا سيدي، هل هناك من لا يعرفك، خاصة وأننا سبق أن تعارفنا، ألم يتم ذلك ذات ليلة داخل السيارة؟

- أنا يا سيدي المستشار الخاص لرجل الأعمال، طلبتم موعداً للقائه وهو أمرني أن ألتقي بكم.

صُدِمَ صاحبنا، إذ إنه تعرض للحظة خوف وتوجس كتلك التي يواجهها بعض الممثلين في أثناء التمثيل. في هذه الأثناء سمع صوت كركرة، هل السكرتيرة هي التي كانت تضحك مكركرة؟..

لم يلتفت نحو تلك الفتاة، استمر توقفه للحظات، ثم بدأ ثانيةً، كان من المفروض عليه الاستمرار في تقديم دوره دون ارتباك، تابع دوره وكأنه جالس أمام رجل الأعمال. وبعدما شرح وضعه وأخبره أنه قَدِمَ طلباً لمساعدة صغيرة، وأنه سيسدد ديونه خلال فترة قصيرة.

قال له المستشار:

- يا سيدي سأعرض عليه جميع طلباتكم، وثقوا تماماً بأنني سأعمل كل ما في وسعي من أجل ذلك.

و بعد ذلك لم يعد أمام الفنان ما يفعله وكانت كل رغبته أن يخرج مباشرة، تماماً مثل رغبة الفنان الذي يؤدي دوراً فاشلاً..

خرج بعدما شد على يد المستشار مبدياً له فائق الاحترام وجزيل الشكر.

بدا الطريق إلى بيته طويلاً برغم أنه رغب في أن يتحول إلى طير كي يطير ويصل إلى بيته ليعلم زوجته بما حصل.

كانت زوجته تشرب الشاي عندما انفجر مقهقهاً، بينما راحت تمطره بالأسئلة:

- ماذا جرى؟..ماذا قال؟.. هل استطعت أن تقابله؟..هيا حدثني يا روحي!.

بينما راح الفنان القدير يضحك بطريقة جعلته عاجزاً عن الشرح، كان يحاول أن يشرح لها ما حدث وهو يقهقه بكلمات متقطعة.

- شيء غير معقول يا حلوتي... كنت أحدثه على أنه هو.. كم من المرات كررت ما كنت سأقوله حتى أنني حفظته عن ظهر قلب... كنت أظن أنني أشرح له، وإذا بي أشرح لمستشاره... وعندما عرفت الموقف تابعت دون أي ارتباك...

كان يضحك بشدة حتى أن الدموع أخذت تسيل من عينيه..

فكرت زوجته بينها وبين نفسها "إنه يلعب أفضل أدواره"، ثم راحت تضحك هي أيضاً...

راحا يضحكان بشدة ودموعهما تنهمر من أعينهما، كانا يضحكان كلاهما، وكان كل منهما يخفي بكاءه عن الآخر.

قال لها الفنان:

- لكن أتدرين؟ ما حدث هو شيء حسن.

- لماذا؟..

- مثلما قلتِ، على كل الأحوال إن لم يمنحني فسأكون قد استرحت من هذا الهم والتفكير.

كانت الزوجة تقهقه، وكان زوجها يتحدث بسخرية بالغة، ثم أسند الفنان رأسه إلى طرف الأريكة، وأجهش بالبكاء وهو يرتعش بشدة.

المُفسد بحاجة للعنابا

أمضينا ذلك الشتاء بصعوبة بالغة، توفي رضيعنا ذو الثمانية أشهر. لم مات؟.. عرفنا السبب بعد قدومنا إلى ألمانيا.. أيعقل ألا يموت طفل عندما تنعدم العناية الصحية، لا طبيب، لا دواء ولا علاج، بلى يموت.. لم يكن ابننا هو الوحيد الذي توفي آنذاك.. في ذلك الشتاء حصدت جائحة أطفال القرية.. شكرا لله فقد سلم طفلانا منها، وكان أحدهما في الحادية عشرة من العمر والثاني في التاسعة.

أمضينا فصل الشتاء، ولكن كيف أمضيناه، نحن، والله الوحيدون العارفون بذلك، أمضيناه مرتجفين تحت أسمال رثة.

راحت زوجتي "تتق" علي مع بداية الصيف "اذهب يا رجل إلى استنبول أو أنقرة واعمل هناك وإلا سنموت جوعا"

ولك، نساء العالم يتوسلن كي لا يتغرب أزواجهن، بينما تلح زوجتي علي في ذلك. رحت أضربها، وتحت الضرب كانت تبكي وتتوسل قائلة: "تجد عملا هناك ثم تأخذنا، وإلا سنفنى جميعنا هنا"، هي تتذمر وأنا أضربها، ماذا بوسعي أن أفعل؟ فهي الوحيدة التي أستطيع التصرف معها على هذا النحو، لأنها زوجتي، أما غيرها فلا... لم أكن أستطيع إقناعها بالعدول عن رأيها مهما ضربتها، لأنها تجهش بالبكاء. وفي الوقت نفسه تلح علي قائلة:

- اذهب وابحث عن عمل واشتغل

حتى لو قتلتها من كثرة الضرب فلن تقول غير ذلك.

إذا أردت الحقيقة يا سيدي، فزوجتي على حق فيما تقول، كيف لك أن تعيش إن كنت لا تملك في قرية قطعة أرض ولا أي مورد تعيش منه، حتى من أيام والدي لم نكن نملك أي شيء، لكن والدي كان ماهراً في تسويق الحيوانات، كان يكسب قوته من بيع الحيوانات وشرائها، يبيع هذا بقرات ذاك، وحمار وحصان هذا لذاك، وفي نفس الوقت يشتري لنفسه أربعة أو خمسة رؤوس ماشية.

من نظرة واحدة كان يعرف الحيوانات، عمرها، وحالتها الصحية، تدر الحليب أم لا، كان يعرف مباشرةً إن كانت ستسمن وتكتنز لحماً أم لا.

حاول المرحوم كثيراً أن يعلمني هذه المهنة، إلا أنني فشلت ولم أتعلمها. وبعد وفاة والدي عملت فترة من الزمن في رعي مواشي القرية، وبعد ذلك عملت فترة أخرى أجيراً زراعياً عند بعض القرويين.

و بعد زواجي بدأت بالعمل مناصفة وكل هدفي أن أمتلك خمسة أو عشرة دونمات، وزوجاً من الثيران، لكن، من أين؟... فالأراضي التي فلحتها وزرعتها، تلفت محاصيلها إما من القحط أو من السيول.

و في النهاية وجدت زوجتي على حق.. لذلك بعت كل ما لدي واستدنت ما تبقى من مصروف الطريق واتجهت إلى استنبول.. وأنت تعرف أفضل مني يا سيدي إلى أي حال من الجنون وصل إليه الناس بالجملة هناك. ازدحام وفوضى وكأنه يوم الحشر. لو قلت لك إنها مثل سوق محلتنا أو سوقها المركزي لكنت مجانباً للحقيقة، وكأنهم مجانين في تلك الأسواق، تجدهم يركضون وكأنهم في حلبة للركض أو مضمار سباق أو ميدان للمطاردة، لكن من يهرب ممن،

أو من يطارد من، فهذا غير معروف. تجد من يركض في المقدمة يطارده ذلك الذي خلفه، وكأنهم يركضون إلى مكان ما، ولكن إلى أي مكان فهذا غير معروف أيضاً. مشهد متداخل ما بين هذا الذي يرتطم بذاك، وذلك الذي ينطح الآخر، هذا يسقط والآخر ينهض، وثالث يتزلج ورابع يتدحرج، وذاك على وشك السقوط وآخر يتعثر ويهم بالوقوع. لا أراك الله مكروهاً فلو وقعت على الأرض لوجدت الجميع يدوسونك ولا أحد منهم ينظر إلى الخلف ولما وجدت من يشفق عليك.

ولك، إلى أين أنا أتيت وأية استنبول هذه؟. أحدهم يلكزك من الخلف وإذا ما ألتفت ناظراً إلى الخلف مستنكراً وجدت الآخر يصدمك من اليسار ويصرخ ويقول "ولك يا دب"، وإذا ما التفت يساراً لترى من ذلك الذي شتمك وجدت من يدفعك من اليمين ويقول "يا أحمق" وعندما تحاول النظر إلى عديم الشرف الذي ينعتك بالحماقة تجد من يلكمك في خاصرتك. وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة تجد من دفعك أو لكزك وهم يصرخون:

- ليس ثمة غير هذه الاستنبول يا دب؟
- امش مثل البشر يا أحمق!
- أنظر أمامك وخلفك يا ثور!
- لمَ تقف؟ امش أيها الجلف!

تخليت عن البحث عن عمل وقلت في نفسي لأبحث عن مكان هادئ وأخرج من بين هؤلاء المعتوهين، ولأعد إلى القرية، وكيف سأتخلص من هؤلاء الناس المفسدين؟.

و كـأن ارتطـام البشـر وتدافعـهم وتناطحـهم لا يكفينـا ، فالسيارات زادت الطينة بلة فعندما تهرب من البشر ترتطم بالسيارات وعندما تهرب من السيارات ترتطم بالبشر، سائقو السيارات أسوأ تجدهم يصرخون وأبواق سياراتهم تشق السماء:

- ولك انتبه أمامك يا شيخ الجلفين ...

- لست مهتماً فيما لو دهستك تحت سيارتي، لكن ما أخشاه أن يعتبروك رجلا ويحاسبوني على ذلك.

أينما ركضت تجد المشهد ذاته، من يركض ومن يطارد؟..و أنا أيضاً يجب أن أركض مثلهم.. لكن الجميع لا يركض في الاتجاه نفسه، أخذت أشعر بدوار في رأسي، شرارات أخذت تتطاير أمام عيني، رحت أشعر بالغثيان فتماسكت كي لا أتقيأ.

عندما أخذت أرفرف بكلتا يدي كي أتخلص من هذا الموقف سمعت صوتاً ناعماً مثل صوت البنات:

- و لك يا جلف، ما بك تنتفض على هذا النحو أم ظننت نفسك في مرعى ترعى فيه قطعانك؟.. امش يا نَوَري.

أنظر إليه وإذا به ولد لا هيئة له ولا منظر، ضعيف مثل الصوص لو أمسكت به وعصرته بين أصابعي لأزهقت روحه وأخرجت كبده من فمه وأحشاءه من قدميه... هززت رأسي وتابعت المسير وإذا به يصرخ عالياً:

- لمَ تحدق بي؟..

لو هجمت عليه لعاروني به واستهزؤوا بي وهو الولد الصغير.

لكن عندما شتمني قائلاً » ولك دب ابن الدب « لم استطع

تمالك أعصابي فهجمت عليه وأنا أردد الله الله. لكن يا سيدي، أي بلاء حل على رأسي؟ لقد هجم الولد عليّ وكأنه ديك مخصص للعراك فلكمني على أنفي! وعلى أثرها انفجر الدم! ماذا ينفع توتري عندما رأيت الدم النازف ـ فالولد مثل البذرة لا يمكنني الإمساك به، يندفع ويضرب ثم يبتعد. شج جبيني وغطى الدم وجهي وعيني. أما قلت إنني لو أمسكت به لفركته وسحقته مثل القملة، لكن الولد المنحط لا يُمسَك. وعندما كنت على وشك السقوط لكمني بيسراه ويمناه وابتعد. ولك يا عديم الدين والإيمان! تصور يا سيدي إنني أضرب، ويضربني ولد صغير!، صحيح أنه ولد صغير لكنه مثل القملة، انتهيت، مت، » ولك حتى لو قلت له كفى، كفى أيها المنحط كفى « إلا أنه على ما يبدو لن يتوقف. كان يضربني ويصرخ قائلا » أيها الجلف، أيها الحقير « ثم يلكمني. من أين ابتليت بهذا البلاء، لم أستطع الخلاص من بين يديه. وأنا لست ممن يختبئون يا سيدي، ومن شدة غضبي رحت أبكي فمن عيني تنهمر الدموع ومن أنفي وجبيني يسيل الدم، واختلط لعابي بمخاطي. رحت أركض لعلي أنقذ نفسي.. لكنهم لم يتركوني لم يكن وحده بل جميع من كان هناك راحوا يركضون خلفي وهم يصرخون:

- يووووه ... يووووه يا دب، يا جلف.

شكرا لله أنهم فقدوا أثري بعدما دخلت في حشد من البشر. آه يا استنبول آه!!!.. قاتلك الله وجعل منازلك خرابا يا استنبول.

وبرغم أنني بقيت فيها عدة أيام وأنا أبرر لنفسي، أيعقل أنني دخلت معرض استنبول في يومي الأول، إلا أن أحداث الأيام كانت ذاتها...

طلبت من أبناء قريتي أن يبحثوا لي عن عمل، لكن بعضهم كان عاطلاً عن العمل منذ أشهر وبعضهم منذ سنة وهم يبحثون عن فرصة للعمل وأين تلك الفرصة؟..

يقولون إن الألمان بحاجة لأيدٍ عاملة، شريطة أن تكون من النساء، ولك ما هؤلاء الألمان، وأية عقلية، .. ماذا؟!!.. قال يطلبون نساء للعمل ولك أتصلح المرأة للعمل؟.. لماذا لأن أجورهن قليلة أولاً وثانياً إن النساء مطيعات، لينات الرأس..

و في النهاية لم أجد أمامي سوى العودة إلى القرية، فلما عدت إليها وجدت زوجتي ليست كما عهدتها، تنهرني باستمرار وفي نفس الوقت تتزلف وتتوسل ليل نهار، وعندما بحثت لمعرفة سبب تخلخل توازنها، علمت أن إحدى قريباتها تعمل في ألمانيا وقد عادت إلى مدينتها في إجازة، استطاعت إقناع زوجتي بالعمل هناك قائلة "ولك أيعقل أن تتحملي هذه الرذالة هنا، هيا بنا إلى ألمانيا كي تعرفي إنسانيتك" أقنعتها بهذه الفكرة حتى أنها بدأت تعد ما يلزم لذهابها للعمل في ألمانيا، وتوسلت إليها كي لا تذهب، ولكنها لم تعدل عن رغبتها قالت لي أن أذهب أولاً ولتلحق بي، فقلت لها إياك وإلا طلقتك، أجابتني قائلة "يا عزيزي هذا اليوم هو الأنسب" فشعرت تماماً أن زوجتي فقدت صوابها، وأن لا أحد يستطيع ثنيها عن قرار السفر.

أنهت كل الإجراءات ووضعت الأطفال عند إحدى قريباتها بعدما أقنعتها بأنها سترسل إليها بعض النقود من ألمانيا.

تسلمت أول رسالة بعد شهرين من سفرها، وهي تقول فيها "عندما قدمت إلى ألمانيا عرفت أنني إنسان". فالعاملات هنا يمكنهن دعوة أزواجهن عندما يرغبن، لأن فرص العمل كثيرة، تأتي وتجد لك

عملاً، وفيما بعد نجلب الأولاد، حولت لك عبر البنك خمسمئة مارك ألماني، هيا تعال كي تعمل هنا.

ولك برافو يا زوجتي، لا يوجد مثلها، امرأة متميزة، أخت الرجال، بل هي أرجل الرجال لا يمكن أن يكون ثمة مثل زوجتي. لكن ماذا يعني هذا المبلغ؟.. بالقياس إلى عملتنا فهذا مبلغ كبير، رحت أتجول في القرية حسب رغبتي، أصرف ولا أحد يعكر صفوي.

أرسلت زوجتي أوراق الدعوة، وأتممت الإجراءات، لكن عندما اتجهت إلى الطبيب الخاص بالسفارة الألمانية في استنبول، راح الطبيب يفحصنا كل عشرة أشخاص دفعة واحدة، والمترجم يترجم طلبات الطبيب: هيا اخلعوا جميع ملابسكم ولتبقوا بالسروايل فقط، خلعنا ملابسنا، التفتوا إلى الوراء وأديروا ظهوركم، أدرنا له ظهورنا. هيا اخلعوا سراويلكم... استغفر الله ما هذا الطلب المخجل؟.. نعم خلعنا سراويلنا، لكن ألم يقل لنا هيا قرفصوا؟ بلى.. فقرفصنا.

- ما هذا الطلب يا صديقي؟.. هذا يعني أن الألمان ليسوا بحاجة إلى مثل هؤلاء، كن كيفما شئت فالمهم أن تكون قادراً على العمل لديهم، وراح الطبيب يفحص أدبارنا هل فيها بواسير، هل فيها نزف؟ لأن المصاب بالباسور أو الناسور لا يعمل جيداً.

و هكذا فحصوا أدبارنا، ثم طلب منا الاستدارة "هيا التفتوا إلى الأمام وافتحوا أفواهكم" فتحنا أفواهنا، راح الطبيب يفحص فمي بعناية ثم أخذ يتكلم إلى المترجم ليقوم هو بترجمة حديثه "على هذه الحالة لن تستطيع العمل في ألمانيا، هيا اذهب وأصلح أسنانك، ثم عد إلينا. إيه وماذا بعد ذلك؟..

أتدري ما خطر على بالي؟.. هؤلاء فحصونا مقرفصين، هل يا ترى فحصوا النساء بهذه الطريقة؟.. استغفر الله.. انعدمت الأخلاق يا صاحبي.. من خجلي لم أتجرأ على الاستفسار من أحد. فكرت في قرارة نفسي وأقنعت نفسي أن النساء فحصتهن من قبل طبيبات.

كتبت رسالة لزوجتي قلت فيها إن وضعي السفلي جيد، غير أن أسناني بحاجة إلى إصلاح لذلك أرسلي إلي من هذه الماركات الألمانية، وأرسلت لي المطلوب فعلاً، وأصلحت كل أسناني، وهكذا صرت صالحاً من الأعلى والأسفل، وأنهيت كل الإجراءات، وثم ركبت القطار متجهاً إلى ألمانيا.

نزلت من القطار.. وأي ازدحام! لكأنه يوم القيامة!.. عندما تراسلنا أنا وزوجتي أعلمتني أنها ستنتظرني.. ولكنني لم أجدها هناك.. بحثت عنها فلم أجدها.. وفي أثناء ذلك إذا بامرأة شقراء تقترب مني وتحتضنني قائلة:

- ما بك تتلفت يا "رجّال"؟.

فلما قلت لها:

- أبحث عن زوجتي.

أطلقت ضحكة مجلجلة وكأنها ابنة منطقتنا.

أفقت من ذهولي وعرفتها من صوتها عندما قالت "ما بك ألم تعرفني وأنا التي عرفتك مباشرة؟ أيعقل أن تنساني خلال سنة واحدة؟ لا أستطيع القول إنها لا تشبه زوجتي التي أعرفها، بل هناك بعض الشبه. رغم هذا التشابه البسيط فقد غايرت زوجتي تلك التي أعرفها، تخلت عن سراولها الريفي وانتعلت الحذاء ذا الكعب العالي وارتدت

الجوارب الشفافة، عارية الساعدين كاشفة الصدر، وقصت شعرها وصبغته باللون الأشقر.

- لو لم تعرفيني عن نفسك لما عرفتك.

لكن ألم تحتضني وتقبلني وسط الناس؟

قلت لها وأنا أدفعها إلى الوراء:

- على رسلك يا امرأة.. توقفي.. ما هذا الذي تفعلينه؟ ...

- يا رجال أنت لست في القرية، هنا القبل والتقبيل أمر عادي، هنا الرجال والنساء يقبلون بعضهم بعضاً مثل طير الحمام، ويزقزقون مثل العصافير.. ومن المعيب ألا نفعل ذلك، ثم اندفعت ثانية، وراحت تحتضنني وأسندت شفتيها إلى فمي لتقبلني قبلة طويلة.. ترى أليس هذا عيباً حسب رأيها؟..

حملنا الحقائب ومشينا، وضعت قدمي على درج سلم متحرك، ويا للغرابة! أنت تقف في مكانك وهو يرفعك إلى الأعلى:

- ولك ما هذا يا امرأة؟..

- انتظر، هذا ليس بالشيء العجيب!

وما كدت ألحق أن أقول لها:

- ولك امسكيني سأسقط

حتى تدحرج من على السلم، وسقطت في مكان وتبعثرت حقائبي في مكان آخر.. راحت زوجتي تضحك مقهقة. اقتربنا من مكان زجاجي، لا أدري هل اخترقت الجدار الزجاجي أم انشق الزجاج ودخلت ذلك المكان، ومن خلفها دنوت فإذا بالجدار الزجاجي ينفتح تلقائياً! ألم يكن هذا الجدار هو بوابة زجاجية تُفتح آلياً. الله

اللـه!، عرفت أن السلم يتحرك تلقائياً، ولكن كيف يعي الزجاج قدومي وينفتح تلقائياً؟.

- ولك يا امرأة، ما هذا الشيء؟.

- انتظر، الآن لأنك لم تشاهد بعد شيئاً ذا بال.

اعترضني جدار زجاجي آخر، تابعت مسيري معتقداً أن هذا الجدار سينشق أيضاً، وإذا برأسي يرتطم بلوح الزجاج:

- ولك يا امرأة لمَ لم ينفتح؟.

- ألم تلاحظ أنه ليس باباً؟..

قلت لها عندما عطشت كثيراً فشعرت أن أحشائي تلتهب:

- و لك ألا يوجد ماء هنا؟.

- أيعقل ذلك؟

أجهزة كبيرة بأزرار مصففة. وضعت زوجتي قطعة نقدية ألمانية في فتحة الجهاز وضغطت على أحد الأزرار ثم أخذت كأساً مملوءاً بالماء من داخل ذلك الجهاز، وقدمته لي ومن ثم أخذت كأساً لها:

- و لك كيف ذلك!؟!!.

- من المعيب هنا شرب الماء، ولذلك سنشرب البيرة.

ثم وضعت قطعة نقدية في جهاز آخر وأخرجت منه لفافة.

- و ما هذه؟..

تفوهت بكلمة لم أفهمها في وقتها، وعرفت فيما بعد أنها "بريزفاتيف".

- وماذا يعني؟.

- ستستخدمه أنت فيما بعد.

- و أين سأستخدمها؟.

- عندما نذهب إلى البيت.

كانت تسير أمامي، عندما شاهدتها من الخلف فاستغربت من مشيتها! كانت تسير ساق إلى هنا والأخرى إلى الطرف الآخر، فصحت عليها:

- و لك يا عديمة الإيمان ما هذه المشية؟.

- أسير مثل الجميع، شاهدتهم يسيرون بهذه الطريقة، وهكذا رحت أقلد مشيتهم.

ركبنا سيارة ووصلنا إلى البيت، فشُدهت من هذا البيت، إنه يشبه بيوت الباشوات الذين نعرفهم.

- و لك هل هذا بيتنا؟.

- نعم بيتنا، هذا براد، وهذه غسالة، وهذه مكنسة كهربائية، وهذه آلة للجلي، وهذا مذياع وذاك تلفاز.

و عندما هممت بالجلوس شاهدت شيئاً:

- و ما هذه؟.

- آلة تجفيف الشعر.

- ماذا يعني؟.

- أجفف شعري بعد الاستحمام، هيا ادخل الحمام لتستحم.

ولكن أي حمام يا روحي، لو لم تساعدني زوجتي لما استطعت الاستحمام!

جهزت زوجتي مائدة الطعام، وملأت الكؤوس بالنبيذ، ثم جلست قبالتي لفت ساقاً على ساق ووضعت سيجارة في فمها، لكني استغربت كثيراً عندما قالت لي:

- هيا أشعل لي السيجارة.

- ولك أتدخنين أيضاً؟.

- الجميع هنا يدخنون، وأنا أدمنت على التدخين.

بعدما أكلنا وشربنا دخلنا غرفة النوم، تمددنا على السرير، فأخرجت تلك العلبة التي أخذتها من ذلك الجهاز وقالت:

- هيا استخدمه.

- و لك كيف أستخدمه؟

شرحت لي طريقة الاستخدام.

قلت لها:

- ولك ما الضرر الناجم عن الطريقة التي نعرفها حتى نستخدم هذه الطريقة الآلية؟.

قالت إنها لم تلتقط روحها من الطرقات وإنها غير مستعدة لتزهقها، وإنها كادت تموت من كثرة عمليات الإجهاض، لذلك لابد أن تستخدم موانع الحمل، وهي إما أدوية وإما عوازل مطاطية، فأما الأدوية فلها محذورات عدة على صحة المرأة. نفذت رغبتها وفعلت ما أشارت إليه وطلبت، لكن بعدما خبت رغبتي في ذلك، وفشلت في إيقاد جذوة رجولتي.. إيه!!!.. ما العمل؟.. انزعجت كثيراً من هذا الموقف، مما أدى إلى تعكر مزاجي.

- و لك يا امرأة - قلت لها - لن أستطيع الاعتياد على ذلك هيا لنعد إلى قريتنا.

- على رسلك.. ستعتاد ذلك مع مرور الزمن.

ماذا تقول يا سيدي، حقيقة إن زوجتي كانت على حق، شكراً

لله أنني اعتدت على الطبائع الألمانية، و وجدت عملاً في أحد المصانع، يعمل فيه عشرة آلاف شخص، لا أحد منهم يعرف ما ينتجه هذا المصنع، ولك أيعقل أن يعمل المرء في مكان لا يعرف ما ينتجه، وما هي استخداماته؟ هكذا لا أحد يعرف هنا، لكن لم لا يعرف فهذا ما عرفته فيما بعد.

مصنعنا هذا ينتج كل شيء لكل شيء، كيف؟.. أشياء للسيارات والبرادات والمراكب البحرية

و التلفزيونات والغسالات، أي ينتج قطع الغيار لكل الأشياء. أو لنقل هو مصنع قطع.. ليس ثمة نوع من القطع لا يصنع فيه.

هناك ما يسمى عامل خط إنتاج، وأنا عملت على خط الإنتاج، ففي ألمانيا هذه كل شيء يتم آلياً وتلقائياً، السلالم تسير وحدها والأبواب كذلك، والأجهزة تعطي البيرة وحدها، وعوازل مطاطية أيضاً، شوكولا كذلك. وخطوط الإنتاج هنا تسير وتتحرك لوحدها أمام الإنسان، على خط الإنتاج هذا وكل عشر دقائق يمر أنبوب معدني، مهمتي إزالة الزوائد المتشكلة عليه وإعادته على السير، وإذا لم أزل العوالق بشكل جيد يتوقف السير لوحده ويلقي الأنبوب إلى خارجه، يمكنك أن تتلاعب على أي شخص لكن لو مت لن تستطيع التلاعب على تلك الآلة، هكذا كان علي إزالة العوالق كل عشرة دقائق، هذا يعني يجب إنجاز المهمة خلال تلك الفترة وإذا فستأتيك قطعة ثانية، أربع ساعات عمل قبل الظهر وأربع بعد الظهر. على خط السير هنا لا يمكن التوقف، أو أن تلتقط أنفاسك ولا يمكن أن تقول للآلة توقفي علي الذهاب إلى المرحاض. استصعبت العمل في البداية، وفيما بعد اعتدت عليه، هناك مسألة أخرى في هذا المصنع الألماني،

KMH

عندما نبدأ بالعمل يبدأ بث الموسيقى والأغاني عند فترة الغداء يتوقف البث تلقائياً ليعود ثانية عند بدء العمل بعد الظهر وهكذا حتى المساء ليرضى الله عن هذا المعلم الألماني كم هو إنسان جيد، تصور أنه يفكر في كل شيء حتى في أن يسمعنا الموسيقى والأغاني، عندما يبدأ بث أغانينا وموسيقانا تجدنا نعمل ونحن نرقص مسرورين، وكذلك مكان عمل زوجتي مجهز بالموسيقى، والموسيقى كانت السبب في تغيير مشية زوجتي، وهذا ما عرفته فيما بعد. ليست زوجتي فحسب، فالنساء الأخريات هنا اعتدن العمل وهن يرقصن ويتحركن.

هكذا يا سيدي، الحمد لله استطعنا التأقلم مع الوضع وجلبنا الأطفال، زوجتي تحصل على ألف وخمسمئة مارك ألماني شهرياً وأنا أحصل على ألف ومائتين.. يمكن القول بأنني بدأت أفك الحرف في اللغة الألمانية حتى أنني بدأت أتحدث ببعض الكلمات بالألمانية مثل "بيريفات وكيرناك، دانكشن وزيرشون"، ولو كنت أستطيع الابتعاد عن سير الإنتاج لتعلمت أكثر من ذلك، ولكنني لا أستطيع. ولدانا يكبران، والعمل جيد، والأمور تسير على ما يرام، أقول إن أشغالنا بقيت تسير على نحو جيد، أقصد إلى حين مجيء حسن الاستنبولي، عند قدومه تغيرت أمورنا، حسن هذا شخص حاذق وجريء، محتال وماكر تجاوز الشيطان في خبثه، رجل لسانه أحلى من العسل.. صاحبناه.. هو في الأصل ليس من استنبول بل من "هوبلي"، ولكنه سكن في استنبول سنوات طويلة لذا كان يعد نفسه استنبولياً، لا يوجد شيء لا يعرفه، يعرف كل شيء، فهو رجل مطلع يجيد القراءة والكتابة، والكتب تتكدس في كل أرجاء بيته. وبما أنه هنا في

ألمانيا منذ مدة طويلة فهو يجيد الألمانية بطلاقة حتى أن معلمنا الألماني لا يتحدث بالألمانية بمثل طلاقته.

صادقنا هذا الرجل، وحدثني عن ماضيه وأنا حدثته عن ماضي، حدثته عن كل شيء، حتى أنني قلت له ما أعلمتكم به عن ذهابي إلى استنبول، وكيف ضربني ذلك الولد الذي لا يتعدى طوله الستة أشبار وكيف هربت منه وعدت إلى القرية، وكيف خططت زوجتي وأجبرتني على المجيء إلى ألمانيا. وهكذا أصبحنا صَديقَين حميمين. حتى أن العمال الأتراك هناك أخذوا يسدون إلي النصح كي ابتعد عنه:

- حسن الاستنبولي هذا داهية ومحرض كبير، ومخرب كبير، يخرب جميع العلاقات في المعمل الذي يدخله ويقلبه رأساً على عقب وفي النهاية يفصل من العمل، ولو يفصل وحده فليست في الأمر مصيبة، ولكنه يسبب فصل خمسة إلى عشرة عمال استطاع إقناعهم بأفكاره، لم يبق في ألمانيا معمل لم يقحم نفسه فيه ويخربه ويطرد منه، لذلك يا صديقي أحذر على نفسك من صديقك هذا، وإياك أن تقتنع بهذا المحرض المخرب، وإلا ستواجهك المتاعب التي أنت في غنى عنها، ألم يقولوا "قل من صديقك أقل لك من أنت؟"... علينا أن نعلمك وأن ننصحك وعليك الباقي، وأنت تعرف ما ستفعل.

بالله عليك ما هذا المنطق وما هذا الكلام؟. ما يعني هذا؟. ولك، هل أنا حمار حتى اقتنع بمثل هذا الشيء وأخرب بيتي بيدي! واضح أنهم بكلماتهم هذه يهدفون إلى الإيقاع بيني وبين حسن الاستنبولي.

استمرت صحبتي لحسن وكنا معاً بشكل دائم، لأنني كنت أتعلم من كل كلمة يقولها.

ذات يوم قال لي حسن:

- أتدري لماذا استطاع ذلك الولد النحيف ضربك عندما كنت في استنبول؟.

أجبته:

- لا أعرف، لكنني، أتوق إلى معرفة ذلك.

- تعال إذاً معي كي أشرح لك السبب.

ذلك اليوم كان يوم عطلة لكلينا، فذهبنا إلى معملنا وأدخلني إلى قسم فيه آلات ضخمة، وبعد ذلك راح يتحدث إلى رئيس القسم الألماني ببعض الكلمات ومن ثم طلب مني الوقوف إلى جانب إحدى الآلات الضخمة وقال:

- انظر جيداً إلى هذه الآلة الضخمة.

نظرت ملياً إلى أن شعرت بدوار في رأسي، لأن هذه الآلة تحتوي على أكثر من ألف قطعة، الذراع والمحور، مسننات، اسطوانات.. جميع هذه القطع تعمل دون توقف، ثم تابع:

- أفهمت الآن؟.

- لا لم أفهم.

- إذاً ف اسمع ما سأقوله، إن ذلك الولد النحيف الذي ضربك وأوسعك ضرباً ولد وترعرع في استنبول، ولد بين مثل هذه الآلات، شاهد محرك السيارة، عمل في ورشات المحركات، عاش بين الآلات والمحركات، وكما قالوا فإن الإنسان ابن بيئته، والعنب يسود مع

مرور الزمن، ماذا يعني هذا الكلام، الإنسان يشبه البيئة التي ولد وترعرع فيها ويصبح مثلها. انظر إلى ذراع هذه الآلة، انظر جيداً، انظر كيف يتحرك هذا الذراع المعدني باستمرار ويحرك معه المسنن، طاق طيق، تماماً مثل لكمات ذلك الولد التي نزلت على وجهك، ذراع ذلك الولد يشبه تماماً ذراع هذه الآلة. وعندما نتحدث عنك فأنت يا بني ولدت ونشأت وترعرعت خلف الثور الأسود. لا تجيد سوى رعاية هذا الثور ... ماذا بعد؟.. وإضافة إلى أنك مجبول بالتراب الأسود، فإنك لا تعرف غير التراب الأسود. يداك وقدماك متشققتان مثل التراب، ألم يقولوا إن الحصان الأغبر تعرفه إما من طباعه وإما من شكله، وأنت كذلك فقد رافقت الثور الأسود أربعين عاماً، تطبعت بطباع الثور.. وبما أنه ثور فمن الطبيعي ألا يتطبع بطباعك، بل أنت الذي تطبعت بطباعه، حركاتك بطيئة مثل حركات الثور، تسير بتثاقل مثل الثور، فكما أنت تجيد المصارعة، فالأميركي والأوربي يجيدان الملاكمة، لأنك جبلت بالتراب وصارعته.. أما هم فقد جبلوا مع الآلات وصارعوها، ذراعك مثل يد المجرفة، وأما أيديهم فمثل محور الآلات.. مثلما أنت لا تستطيع أن توقف الآلة لتفتح فمك أو تتثاءب وأنت تعمل خلف سير الإنتاج، ولا تستطيع الذهاب إلى المرحاض، ولا تستطيع أن تطفئ ظمأك بكأس ماء، وليس لديك الوقت كي تحك رأسك، كذلك في مدينة مثل استنبول لا تستطيع التوقف في شوارعها وساحاتها، ولا تستطيع أن تتمشى رافعاً رأسك للهواء، أو تفتح فمك للسماء، وإلا وجدت من يدفعك ويرميك على الأرض ويدوسك ويتابع مسيره، أعرفت الآن لمَ كانوا يصفونك بالثور في استنبول، انظر،

أرأيت خط الإنتاج، أي خط إنتاج؟، ستتحول مع مرور الزمن إلى ما يشبهه، وستسير بسرعة مثل خط الإنتاج.

انزعجت في البداية من حديثه، لكن عندما فكرت ملياً وجدته محقاً، لم يمض على وجودي في ألمانيا أربعة أعوام حتى أصبحت أشبه خط الإنتاج، ولك لو عملت هنا عشرين عاماً لأصبحت خط إنتاج.

سألته:

- أخي حسن هل تعلمت كل ذلك من الكتب؟.

- لا تتناول الكتب هذه الأمور، ولكنك عندما تفكر في هذه الأمور تفهمها جيداً.

عندما ذهبت إلى العمل في اليوم التالي، رحت أراقب خط الإنتاج الذي يسير أمامي وأقارنه بيدي، كنت غريباً عن كل شيء، ولك هل سأصبح خط إنتاج في هذا المعمل.. عندما عدت مساءً إلى البيت رحت أرمق زوجتي بنظرات استغراب، إذن فحركات زوجتي الراقصة، واهتزازات أعضاء جسدها، يدها و صدرها، طبيعة مشيتها سببها طبيعة عملها، هي تعمل خلف الآلة في المعمل وفي البيت هي وسط مجموعة من الآلات وهكذا أصبحت تشبه الآلة، ثم نظرت إليها من الخلف، ولاحظت أن حركة قدميها تشبه حركة الغسالة الأتوماتيكية. فصحت عليها:

- ولك يا عديمة الضمير، كفاك رقصاً!.

- ولك يا "رجّال"، أجننت، ما هذا الكلام؟.

جننت عندما سمعت ما تفوهت به، لكمتها لكمتين على خديها، ثم ألقيت بها على الأرض، وفي هذه اللحظة تذكرت حديث

حسن، وقلت في نفسي في السابق كنت أصفعها فلم لكمتها هذه المرة؟.. فكرت في ذلك وخلصت إلى نتيجة هي أن ساعدي بدأ يشبه محور الآلة، تركتها وابتعدت عنها متجهاً نحو الغسالة الأتوماتيكية بعدما أخذت قضيباً معدنياً وبدأت بتكسير أسطوانة الغسالة التي تشبه حركتها حركة قدمي زوجتي.

كانت زوجتي تبكي وأنا أرغي وأزبد وأفور مثل الماء المغلي في مبرد السيارة عندما طرق الباب وإذا بحسن هو الطارق!.

أخبرته كيف ولماذا ضربت زوجتي، وكيف كسرت الغسالة، يعني شرحت له مثلما حدثتك.

قال لي:

- يا صديقي، ستخسر كثيراً عندما تعادي الآلة، أية عربة ثور تستطيع أن تحمل أكثر من سيارة نقل؟

و أي حصان يسير أسرع من السيارة؟ الآن أنت انهزمت أمام الغسالة الآلية.

فصرخت بأعلى صوتي:

- كيف انهزمت وأنا الذي حطمت آلة الغسيل وبعثرتها أجزاءً؟

- لقد انهزمت، وأية هزيمة!، كسرت الآلة الجديدة، وغداً ستشتري واحدةً غيرها وستدفع النقود.

لقد حصل ما قاله حسن فعلاً، ففي اليوم التالي ذهبنا واشترينا غسالة جديدة.

- حسناً وماذا سيحصل بعد ذلك يا أخي حسن؟... هل سنذهب ونقف مثل الآلات، زوجتي ترقص مثل الآلة، هل وقعنا أسرى في يدها؟.

- علينا استخدام كل ما هو أرفع من الآلة، لا شك أنها أرفع

منا مستوى، ولكنها بلا عقل، أما نحن فلدينا العقل، وسنستخدمه كي لا نبقى أسرى للآلات.

و كيف سيتم ذلك؟.. حسب قول حسن يتم ذلك بألا ننسى أننا بشر، وكما قال فحتى نعتبر أنفسنا بشراً يجب أن نبحث عن حقوقنا، فالآلة لا تستطيع المطالبة بحقوقها، ولكن كيف نطالب بحقوقنا؟.. أولاً لا بد أن ننضم إلى النقابة..

آه يا سيدي، آه.. لقد قالوا لي، حذروني من هذا الولد الذي فاق في دهائه حتى الشيطان، حذروني وقالوا إياك وإلا فسيقضي عليك، لكن أين المخ الذي يجب أن يفكر، لم أصدقهم، خالفت رأيهم، واقتنعت بكلامه وأصبحت نقابياً في المعمل.

- و ماذا سنفعل الآن يا أخي حسن؟

- الآن ستبحث عن حقوقك.

- وكيف سأبحث؟.

- بداية ستُنتَخَب ممثلاً عن العمال.

- لا، رجاءً لا تقل هذا الكلام، كيف سأصبح ممثلاً عن العمال؟!!.

- ستصبح نعم ستصبح ممثلاً، فنصف عدد العاملين في المعمل من الأتراك وهناك أيضاً عمال يوغسلاف ويونان وعرب.. هناك فقط عشرون بالمائة من الألمان، وهم سيدعمونك أيضاً..

- لم لا تصبح ممثلاً للعمال، فأنت أنسب مني.

- أنا شخص مرفوض وموسوم، وذائع الصيت، عندما أتقدم بذلك أطرد من العمل فوراً.

شرح لي حسن كل شيء بأدق التفاصيل ومع ذلك لم أثب إلى رشدي. وبالفعل أصبحت ممثلاً عن العمال في انتخاب نقابي، لا أستطيع أن أقول إنني انتخبت بجهودي بل بفضل حسن، في البداية نسق الأمور مع العاملين الألمان، وبعد ذلك مع الآخرين. لكن عندما بدأ الحوار مع العاملين الأتراك واجه صعوبات كبيرة، وأية صعوبات!

كنت قد شرحت لك عمل خط الإنتاج الذي أعمل عليه: كل عشر دقائق تصلني أسطوانة معدنية، وأنا بدوري أزيل العوالق بهذه الفترة وأعيدها إلى مكانها، بعدها مباشرة تأتي أسطوانة أخرى، وهكذا أسطوانة كل عشر دقائق، ففي الساعة الواحدة ست أسطوانات هذا يعني أنني أزيل العوالق عن ثمان وأربعين أسطوانة في ثماني ساعات من العمل. خطوط الإنتاج مختلفة، المهمات وسرعاتها يختلف بعضها عن بعض، بعضها أسرع من سرعة خطي، وبعضها أبطأ، وكل خط له مهمته، بعض العمال ينجز ستين إلى سبعين قطعة يومياً.

أصدر رب العمل أمراً يقضي أجوراً إضافية للعمال إذا زادوا من إنتاجهم. ولك انظر إلى هذه الإنسانية، "ربي يوفقهم ويرضى عليهم". وهكذا راح العمال يزيدون عدد القطع المُنتجة، فبينما كنت أنهي في اليوم ثماني وأربعين قطعة رفعتها إلى الخمسين ثم الستين، وبعد ذلك إلى الثمانين ... لذلك رحت أنادي على الفني الألماني المسؤول عن تسريع الخطوط: ولك، سرّع سرّع هذه الخطوط كي نعمل أكثر.. عمالنا الأتراك يأتون في المقدمة. وهكذا ازداد إنتاج مصنعنا ثلاثة إلى أربعة أضعاف، لم يكن مصنعنا هو الوحيد في ذلك بل جميع مصانع

ألمانيا.. ومن كان السبب في ذلك؟.. لا شك أن عمالنا الأتراك هم السبب، حتى أن أحد الوزراء الألمان ظهر على شاشة التلفزيون وراح يمتدح العمال الأتراك طويلاً ويتحدث عنهم وعن جديتهم في العمل.. رحنا ننتفخ مثل الطاووس، بينما كنت أحصل على ألف ومائتي مارك ألماني شهرياً، وبفضل تسريع وتيرة الإنتاج حصلت في الشهر الأول على ألف وخمسمئة مارك ألماني. لذلك كنت أصرخ عالياً بالألماني رئيس الورشة" هيا ارفع السرعة، ارفع السرعة ودع الخيرات تأتينا.

في الشهر التالي قبضت ألف وسبعمائة مارك. وكما تعلم فهذه آلة وليست يد إنسان، لذلك لم أعد أفكر في شيء، كل سمعي وبصري مرتبط بخط الإنتاج، لم أعد أرى سوى الأنابيب التي كانت تجري على سيرها

- ارفع من سرعتها يا معلمي، ارفع!.

و في الشهر التالي قبضت ألفاً وتسعمائة مارك ألماني.

و هكذا أصبحت جميع أمورنا في أحسن حال، إلا أنني وكما تقول زوجتي، كنت أتكلم في نومي "هيا أرسل يا معلمي، دعه يأتِني، هيا سرّعه لأكون قربانه"، وأحرك يدي باستمرار وكأنني أعمل في المصنع.

أياً كانت الأسباب، فالعمال الألمان وقفوا ضدنا وأظهروا العداء لنا نحن العمال الأتراك.

قالوا لماذا رفعنا وتيرة عملنا، ولماذا رحت أزيل شوائب أكثر من مائة أنبوب، بينما كنت أنهي ستة وأربعين أنبوباً فقط، الأمور واضحة يا جماعة، فهم مغتاظون ويغارون منا نحن الأتراك، لماذا نحن نعمل

أكثر منهم ونقبض أجوراً أعلى من أجورهم... ولك يا حيوان اعمل أكثر وخذ رواتب أعلى، أليس كذلك يا بك؟..، لكن أن يقف حسن الاستنبولي هذا مع الألمان، أنظر إلى هذه الحالة.

ذات يوم قال لي:

- لنلتق عندما تنهي عملك في المساء.

ذهبنا إلى أحد المطاعم، وبينما كنا نشرب قلت له:

- ولك، أليس لديك إحساس ولك، يا عديم المروءة، ألا تخجل من حالك و نت تقف مع الألمان ضدنا.

سألني لماذا طلبت تسريع حركة السير.

قلت له:

- ليعمل الألمان بهمة أكبر ليقبضوا أكثر... واضح أنهم يغارون منا.

- توقف قليلاً واسمعني جيداً، أتعرف بالحساب؟.

- لا، لا أعرف.

- واضح أنك لا تعرف، فحسب معطيات المصنع، وحسب كتاباتهم، وأقوالهم أن حجم الإنتاج ازداد ثلاث مرات، ماذا يعني لك هذا الشيء؟.. ومن الذي زاد هذا الإنتاج، ألا يعني أن أجورهم يجب أن تزداد ثلاث مرات أيها الأبله؟.. وأنت أحد أولئك الذين رفعوا الإنتاج، في السابق كنت تنهي ثمانية وأربعين أنبوباً في اليوم، وكان راتبك ألفاً ومائتي مارك، وكم يجب أن تقبض إذا ما ارتفع الإنتاج ثلاثة أضعاف؟.. ثلاثة آلف وستمائة مارك أليس كذلك؟.. لذا فكم راتبك الآن؟..

- ألف وتسعمائة مارك ألماني.

- حسناً وماذا عن حقك بالألف وخمسمئة مارك؟..

- لك منشان الله، ألف وتسعمائة مارك ليس بالمبلغ البسيط.

- أما كنت لتشغل عقلك، فلا تصبح عبداً للآلة؟..

- من؟ أنا؟..أنا سأصبح عبداً للآلة.. رجاءً دعك من هذا الحديث..

ليلتها، كنا سنفترق أنا وحسن متخاصمين.

انخفض راتبي في ذلك الشهر إلى الألف وسبعمائة مارك، رغم أنني كنت أعمل بنفس الوتيرة إذ إن يديَّ أصبحتا مثل الآلة.

يومها زرت حسن وسألته:

- ما هذا العمل يا أخي حسن؟..

- أفهمت الآن سبب غضب العمال الألمان منكم؟..

- لا، لم أفهم.

راح يشرح لي قائلاً: عندما بدأنا العمل هنا كان ما يسمى الطاقة الإنتاجية لكل خط إنتاج، أي لنقل إن الآلة التي كنت أعمل عليها طاقتها الإنتاجية اليومية ستة وأربعون أنبوباً، وكل خط إنتاج له طاقته الإنتاجية، فعندما تقوم بإنتاج زائد عن طاقة الآلة يدفعون لك مبلغاً إضافياً لما أنتجت... وعمالنا الأتراك - لكي يقبضوا أجراً أعلى - يعملون بكل ما في وسعهم ويزيدون من إنتاجهم، وهذا يعني أن العامل لديه القدرة على زيادة إنتاجيته، لذلك يقوم رب العمل بتعديل الطاقة الإنتاجية، وهكذا ارتفعت طاقة آلتي الإنتاجية من ثمان وأربعين قطعة في اليوم إلى ست وخمسين قطعة. في السابق كانوا يدفعون لكل قطعة تنتج فوق الثماني والأربعين قطعة، أما الآن

فيدفعون عن كل قطعة إضافية عن الست والخمسين ... هذا ما أغضب العمال الألمان.

- إيه وما العمل الآن يا أخي حسن؟..

- سنستخدم عقولنا، قريباً سينعقد اجتماع نقابتنا، وأنت ستمثلنا هناك وستتحدث عنا.

- ولك ما هذا الكلام؟ وعن ماذا سأتحدث؟.

- سأقول لك.

- حسناً يا أخي حسن.

حان يوم انعقاد اجتماع النقابة ولغاية اليوم لم يعلمني حسن بما سأقول. في يوم الاجتماع قلت له:

- "دخيلك" يا أخي حسن قل لي عمَّ سأتكلم؟..

- أعلمك يا صديقي لكن بشرط واحد هو ألا تعلم أحداً بأنني وجهتك إلى ما ستتحدث به.

- أعدك ...

- سيعمل ممثلو رب العمل على التشبث برأيهم وأنت ستتشبث أكثر، واعلم أن جميع العمال الألمان سيساندونك، من الطبيعي أنهم سيستدرجونك في الحديث كي يعلموا من الذي أوحى لك هذه الأفكار وإذا سيسألونك عن ذلك، فإياك أن تعلمهم بأنني أنا الذي قمت بذلك، وإلا فسيفصلونني من العمل بلا ريب.

- لا تقلق يا أخي حسن.. لكن لم تخبرني إلى الآن بما سأتحدث.

- قل لهم بأننا لا نريد سماع الموسيقا ولا الأغاني أثناء العمل.

حسناً، ولكنني لم أقتنع بما قاله حسن، فالمعلم، عدم المؤاخذة، وزع من أجلنا في كل نواحي المعمل مكبرات للصوت كي يطربنا ويروح عنّا أثناء العمل، فأينما توجهت تسمع غناءً وموسيقى.

- أرجوك يا أخي حسن ما هذا الهراء الذي تتفوه به، ولك تصور ما قيمة الملهى إن كانت بلا غناء؟ حتى الكازينو قيمتها أرخص من قيمة الطنة والرنة، لذلك يا صديقي فالأماكن التي فيها غناء ورقص تكون أفضل من مثيلاتها، ما رأيك أن المعلم يطربنا ويسمعنا الأغاني، ولا يقتطع من رواتبنا شيئاً، حتى الأسطوانات يشتريها من جيبه الخاص "جزاه الله خيراً"، كي نتسلى ونروح عن أنفسنا أثناء العمل، والآن إذا قلنا له لا نريد سماع الأغاني سيسر من ذلك وسيوقف تشغيل آلة لأسطوانات "البيك آب"

- أنت قل لهم الآن، لا نريد سماع الموسيقى لنرى إن كان سيوقفها أم لا؟...

- لكن اشرح لي لم لا نريد سماع الغناء والموسيقى؟..

- لمَ؟.. سأشرحه لك فيما بعد.

بدأ الاجتماع، وعندما جاء دوري في الكلام قلت لا نريد أغاني ولا مغاني ولا حتى موسيقى. مع انتهاء كلامي وكأن قنبلة فرقعت داخل قاعة الاجتماع، لقد استشاط ممثلو رب العمل غضباً وأي غضب، قالوا ما هذا الطرح السخيف؟ أيعقل أن تقدم مثل هذا الطلب مع وجود مطالب أهم مثل مشاكل العمال؟ مشكلة الأجور والصحة؟ والموسيقى والأغاني لا يمكن إيقافها وهي موجودة وستبقى، حتى العمال الأتراك الذين كنت ممثلهم اعترضوا على مطلبي.

"لعب الفأر في عبي" عندما بدأ ممثلو رب العمل بالصراخ والصياح بعدما طلبت إيقاف تشغيل الموسيقى والأغاني، فمن المؤكد أن هدفاً ما وراء ذلك، ولكن ما هو القصد؟ لو كان رب العمل ذكياً لوافق على الفور على طلب العامل، أما ممثلو رب العمل فقد كانوا على العكس تماماً إذ إن إصرارهم كان على تشغيل الموسيقى، وقالوا إنه لا يمكن أن يتم العمل دون تشغيل الموسيقى، أما أنا فأصررت على إيقافها وهكذا قامت القيامة، وفي النهاية لم نتفق، وتم تأجيل الاجتماع إلى مدة عشرة أيام.

دعاني ممثلو رب العمل إلى غرفتهم بعدما انتهى ذاك الاجتماع، فذهبت إليهم. استقبلوني أحسن استقبال، وجوه باشة، كرم ضيافة، واحترام بالغ. بعد ذلك اخذوا باستدراجي في الكلام. من ذاك الذي أوحى إلي فكرة إيقاف تشغيل الموسيقى في أثناء العمل؟، من هو موجهي؟ لم يثقوا بكلامي بتاتاً، حاولت إقناعهم بأنني صاحب تلك الفكرة، كانوا يحاولون أن يقولوا بأنني لست أهلاً لمثل هذا الرأي. ألحوا كثيراً لمعرفة صاحبها، لكني لم أفصح لهم لأنني وعدت حسن بالكتمان.

مساء ذلك اليوم قال لي حسن:

- حاول العمال الأتراك المناوئون لرب العمل التقرب منه، وسيعملون على إزاحتك من تمثيل العمال الأتراك لأنك طلبت إيقاف تشغيل الموسيقى والغناء في أثناء العمل..

- إيه وما العمل الآن يا أخي حسن؟..

- كنا نعرف النتيجة منذ البداية. ستحاول تجديد الطلب،

وتعبر عن اعتذارك لممثلي رب العمل، لكن ستقول لهم بما أن العمال الأتراك هم الأغلبية هنا، وبما أننا لا نفهم أغانيكم، لذا فإننا نرغب في سماع أغاني الميجانا والعتابا التركية والموسيقى التركية. وعندما يوافقون على طلبك هذا مذعنين، ويقولون نعم للأغاني التركية نكون قد لعنا أمهاتهم.

في اليوم التالي، وحسب اقتراح حسن عقدنا اجتماعاً نحن العمال الأتراك. رحت أتحدث في الاجتماع بوصفي ممثلاً عنهم، في بداية كلامي دب ضجيج وصفير في القاعة فكاد زجاج نوافذ القاعة يتحطم، تابعت حديثي كما وجهني حسن:

- يا أصدقائي، يا أخوتي، أبناء وطني، اسمعوني أولاً، من ثم افعلوا ما تشاؤون... أيعقل أننا لا نريد الأغاني البتة؟.. لا يجوز، نعم نريد سماع الموسيقى والأغاني.. ولكن هناك مسألة واحدة ألا وهي أننا نريد سماع الأغاني والموسيقى التركية.. أما ما يسمعوننا من هرطقات أجنبية غير مفهومة، فإنها والله تؤلم الرأس وتوتر الأعصاب.

أخذ كل من كان يصفر مستنكراً يصفق بحرارة حتى شعرنا أن القاعة توشك أن تنهار فوق رؤوسنا.

و من ثم أيد العمال الألمان موقفنا وقالوا بما أن العمال الأتراك هم الأغلبية فاقتراحهم مقبول لدينا، وبما أنهم يطلبون تشغيل أغاني العتابا فليكن.

كل ما جرى شيء رائع، لكنني إلى الآن لم أفهم ما مضمون ذلك، لذلك قال لي حسن:

- سأشرح لك.

- أرجوك افهمني.

- لا يمكن شرح الموضوع بالكلام، لا بد من إجراء بحث فيه!

صديقنا حمدي، صديق مقرب جداً، لديه سيارة، ركبنا سيارته، وجلس حمدي خلف المقود، كان ذلك يوم الأحد. قال لي حسن بصوت منخفض دون أن يسمع حمدي ما يقال:

- انظر يا أخي، سنقوم الآن بتجربة سأضع شرائط التسجيل الآن في البداية سأشغل أولاً الأغاني الأجنبية، ومن ثم أغاني العتابا ركز نظرك في ساعتك وفي عداد السرعة والمسافات ثم راقب تصرفات حمدي عندما يقود سيارته دون تشغيل آلة التسجيل وعندما نشغل الأغاني الأجنبية الصاخبة، وكذلك عندما نشغل العتابا؟.. وكل مرحلة ستكون خمسين كيلو متراً.

عيني على ساعتي وعلى عداد المسافات أولاً بدون تشغيل المسجلة.

سألني حسن بعد الفترة الأولى:

- بكم قطع المسافة؟..

- بثلاثين دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة مئة.

بعد ذلك وضع شريط أغنية أجنبية، وأية أغنية! اعتقد أنها من نوع الروك، يرقص المرء على أنغامها بجنون منقطع النظير، وكلما انتهت واحدة منها وضع الأخرى.

قلت له:

- لقد قطعنا خمسين كيلومتراً.

أوقف جهاز التسجيل وسألني:

- كم الوقت؟.

- عشرون دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة مئة وخمسين.

بدل الكاسيت ووضع أغاني عتابا تركية ومع بدء الأغنية استرخى صاحبنا حمدي خلف المقود وحنى عنقه. وقطعنا مسافة خمسين كيلومتراً على أنغام العتابا التركية.

سألني حسن بعد ذلك:

- بكم من الوقت قطعنا المسافة؟.

- بأربعين دقيقة.

- حسناً، هذا يعني أنه قاد السيارة بسرعة ثمانين.

بعد هذه المسافة وضع شريط تسجيل فيه أغانٍ من نوع العتابا الطويلة. وبعد فترة من الزمن أوقفتنا دورية شرطة مرور، وتقدم منا شرطي وقال:

- سرعتكم ستين كيلومتراً في الساعة والسير على "الاوستراد" "بسرعات بطيئة" ممنوع. ونظم ضبط مخالفة.

و هكذا قمنا بهذه التجربة في أثناء ذهابنا إلى المدينة، وكلما كانت الأغاني صاخبة كلما زاد حمدي من سرعة سيارته وعندما وضعنا العتابا، خفض حمدي من سرعته دون أن يدري. فلما وصلنا إلى المدينة قام حسن بشرح التجربة لحمدي، فقال لحمدي مندهشاً:

- يلعن ...، لم أنتبه لما حصل بتاتاً!!.

رد عليه حسن قائلاً:

- حتى لو انتبهت لما غير ذلك من الأمر شيئاً، الآن علمت بما جرى، سنعيد التجربة ثانية أثناء عودتنا.

أعدنا التجربة ثانية

- ليس الأمر بيدي - قال حمدي - عندما أستمع إلى العتابا أشعر بالاسترخاء، آه ما أجملها.

تلك الليلة وقبل أن نفترق قال حسن:

- لنكرر التجربة في بيوتنا.

- كيف؟..

- ليدخل كل واحد منا إلى الحمام، في المرة الأولى دون موسيقا وأغاني، وبعد فترة ندخله على أنغام الأغاني الصاخبة، ثم ندخله والعتابا تصدح في البيت. لنقم بهذه التجربة ونوقت، في أية مرة يستغرق الحمام فترة أطول؟

قمت بتلك التجربة، فعندما وضعت أغنية الروك كنت أغسل جسمي بسرعة وكانت قطعة الصابون تنتقل بسرعة أيضاً في لحظات كنت أنهي اغتسالي وأخرج، أما في أثناء أغنية العتابا، فكنت أسترخي في الحمام وأنتعش من لذة الاغتسال وأنا أغني، وبهدوء تام أنهي حمامي وأخرج.. أوه ما أروع الحمام! لكن بلا موسيقا ولا أغاني كان يستمر حمامي عشرين دقيقة، بينما كان يستمر مع الروك خمس عشرة دقيقة وبالعتابا نصف ساعة.

بعد انتهاء التجربة قال لي حسن:

- أفهمت الآن لم يقوم رب العمل بتشغيل أغاني الروك

والموسيقا الصاخبة أثناء العمل؟.. بالتأكيد لا يقوم بذلك على روح أبيه.

- نعم فهمت.

أتى موعد الاجتماع وطالبنا جميعاً بصوت واحد بأغاني العتابا، وبما أنه لا يعرف ما هي هذه الأغاني وافق مباشرة على مبدأ "بعض الشيء أفضل من لا شيء". في ألمانيا كم هائل من الأشرطة التي لا يوجد مثلها في تركيا، قمنا باختيار الأغاني المرغوب سماعها. بدأت أغاني العتابا تصدح في صالات المعمل، وبسببها أصابت عمالنا حالة من الاسترخاء، سعادة ما بعدها سعادة آه ما أجمل العتابا!!!....

بعد فترة لم يعد حسن يظهر.. ماذا جرى له؟ رحنا نستفسر عنه، وإلى أين ذهب وعلمنا فيما بعد أنه فصل من العمل.. ثم وجدوا السبب لسحب إذن العمل منه، فطردوه من ألمانيا ولا أحد يعرف إلى أين غادر.

و بعد ذلك راح كل من كان ينصحني بالابتعاد عنه يقول لي:

-و لك أرأيت؟ هل استوعب "رأسك السميك" لماذا كنا نطلب منك الابتعاد عنه، أ علمت كم هو مفسد.

شعور ما مشوب بالخوف والقلق بات ينتابني.. ماذا لو طردوني من العمل؟ ومن ألمانيا أيضاً؟.

لذلك قلت لهم:

جمعيكم محق بما قلتموه ولم أعرف كم هو مفسد للأمور.

وبعد فترة من بدء إذاعة أغاني العتابا رحت أتوسل إلى رئيس الورشة أن يبطئ سرعة الأغاني..

و هكذا انخفضت وتيرة العمل من تنظيف سبعين أو ثمانين ماسورة في اليوم إلى الخمسين وبصعوبة بالغة بعد ذلك إلى الأربعين،

في بداية عملي كنت أنظف ثمانياً وأربعين والآن أربعين ماسورة، لست أنا الوحيد بل جميع العمال انخفضت انتاجيتهم. ولك، انظروا ماذا فعل بنا هذا المفسد والمخرب، ولك أية مصيبة أوقعها على رؤوسنا وأية حيلة مررها علينا كم هو منحط وسافل وعديم شرف وناموس.

كنا ننظف ماسورة من عوالقها كل عشر دقائق، أما الآن فنقوم بذلك كل عشرين دقيقة، ومع هذا الانخفاض في الإنتاج انخفضت ماركاتنا، كم هو على حق رب العمل؟ ما العمل الآن؟.. تجمعنا عدة أشخاص وتجهنا إلى ممثلي رب العمل وقلنا لهم:

- رجاءً قمنا بما قمنا به ولا تعاملوننا بالمثل، نطالب بالأغاني الفرنجية، والأكثر فرنجية وصخباً.

شكراً لله بدأت الأغاني الفرنجية تصدح في صالة العمل وارتفعت أجورنا ثانية، وبذلك ارتفعت الماركات.

من ثم اشتريت سيارة مارسيدس، شكراً لله انفصلت عن زوجتي والآن أعيش مع امرأة ألمانية، تكبرني بخمسة عشر عاماً، لكن هذا الفرق غير واضح فهي فتاة كاملة مكملة... ولو كانت سمينة قليلاً، فهي تبدو امرأتين في واحدة فهذا أفضل، وكلما قلت لها دعينا نتزوج تهربت، لو تزوجت لأصبحت نصف ألماني، ولن يستطيعوا بعد ذلك إخراجي من ألمانيا. إيه ولغتي الألمانية باتت معقولة..

ابني الكبير تزوج من ألمانية وأنجب طفلاً أيضاً وأسموه كيلفاس. ويقول إنه سيصبح رجل أمن، لكن لا أدري هل ينسبونه إلى سلك الأمن أم لا؟ لأنه منذ مدة شارك في عملية نصب آلية.

إيه هكذا يا سيدي، بسبب ذلك المفسد والمخرب كدت أسقط في الهاوية، طردوه من ألمانيا وتخلصنا منه.

KMH

خالي جيانغ واو

استشهد والدي في الحرب عندما كنت جنيناً في بطن أمي، لذلك فأنا لا أعرفه بتاتاً، و خالي جيانغ واو شارك في الحرب أيضاً. لذلك عانت أمي وعاشت أياماً عصيبة جداً. وعندما عاد خالي من الحرب كنت في الثالثة، أظن أنه عاد معوقاً وبسبب إعاقته لم يتزوج.

ذات مساء صيفي حار، كانت الشمس تغيب كقرص نحاسي أحمر. عادة كان خالي يمضي في أمسيات الصيف الحارة ساعات طويلة فوق سطح البيت مستظلاً بعريش الياسمين وهو يشرب عرق الأرز. كان عندما ينتشي من شرب العرق يصبح مثل الملك، ولا يرغب أن يزعجه أحد.

كانت أمي قد جهزت له مائدة الشراب، وبينما كان يتأهب للجلوس إلى مائدته بعدما غسل يديه أعلمته أمي عن مجيء الخفير يونغ تشي وأنه راغب بلقائه. صرخ خالي منزعجاً من قدومه في هذه الساعة دون أن يتحرك من مكانه:

-أهلاً وسهلاً تشي، ماذا حصل وماذا تريد؟.

الجميع هنا كانوا ينعتونه بالخال مثلي لذلك رد عليه:

-ستأتي إلى المخفر يا واو الخال، يطلبون حضورك إلى هناك.

أجابه خالي:

-حسناً، سآتي غداً.

ابتعد الخفير تشي إلى منتصف الزقاق ورفع رأسه كي يتمكن من مشاهدته:

-ستأتي الآن ولا يمكن التأجيل إلى الغد.

سأله خالي دون أن يعكر صفو مزاجه:

-و لمَ لا يمكن أن آتي غداً في الصباح الباكر؟.

-هكذا قال رئيس المخفر.

-وأنا لا يمكنني الذهاب في هذه الساعة إلى أي مكان، بلغه تحياتي وقل له إنه سيأتي صباح الغد باكراً.

-لا يا خالي واو هذا لا يجوز، سآخذك الآن.

صرخ خالي بأعلى صوته قائلاً:

-لن آتي.

-كيف يعني لن تذهب؟.

-هكذا، كما ترى لن آتي أفهمت، أم لا؟.

صرخ الخفير تشي:

-ستأتي!..

صرخ خالي غاضباً

-لن آتي، وهيا انقلع من هنا.

-ولك، قلت لك ستأتي يعني ستأتي!.

دلق خالي في جوفه عدة رشفات من كأسه دفعة واحدة، ووضع في فمه بعض المازه ثم قال:

-لا أحد يجبرني في مثل هذه الساعة على التحرك من مكاني حتى لو انخلعت الأرض من مكانها.

-انظر يا خالي واو، أنا أعرفك منذ سنوات طويلة، فلا تغضبني.

تجرع خالي من قدحه جرعة أخرى ثم قال:

-إيه، وماذا ستفعل إذا غضبت.

راح جيران ينصتون لحديثهما من أسطح بيوتهم باهتمام وفضول.

-أنت إذاً تعارض خفير الدولة.

نهض الجيران واقفين رغبة في معرفة الموضوع عن كثب، وأخذوا يضحكون عندما سمعوا خالي وهو يقول له:

-ولك، عليك وعلى من عينك خفيراً.. بعدها راح يستخدم شتى أنواع الشتائم القاسية الطويلة من قاموسه.

-إذا كنت رجلاً فأعد ما قلته ثانية...

عندما أعاد خالي شتيمته المدهشة ثانية راح المتواجدون على الأسطح يقهقهون بأصوات عالية، ومن طرافة الموقف راح الخفير تشي يشاطرهم القهقهة. كان خالي الوحيد الذي لم يقهقه معهم.

-هذا يعني أنك ترفض دعوة رئيس الخفر.

ارتشف خالي من قدحه وراح يلوح بقبضته اليمنى بعدما مسح ما علق على شاربيه بقفا يده:

-عليك ... وعلى مفوضك ... وتابع شتائمه.

-هذا يعني أنك ترفض الإمتثال لأوامر الحكومة أليس كذلك؟.

تعالى صخب الجوار بينما كان خالي ينهال عليه بسلسلة من الشتائم حتى أن أحدهم طلب من خالي قائلاً:

-إننا لا نسمعك هنا يا خالي، اصرخ بصوت أعلى كي نسمعك.

-إذاً فأنت تدوس القوانين أيضاً؟..

-ولك، على القوانين.. وعلى من وضع القوانين.

كانت قهقهات الجوار تتعالى باستمرار على أسطح المنازل في تلك الليلة الصيفية الحارة، بعضهم يقهقه ممسكاً ببطنه، وآخر منبطحاً على الأرض من شدة الضحك. إحداهن شقت بصوتها صخب قهقهاتهم قائلة:

-آه يا خالي واو لقد بُلتُ تحتي وبللت سراولي من شدة الضحك، سأفقد وعيي من شدة الضحك يا خالي واو.

كل شتيمة يطلقها خالي لا تشبه سابقتها، وفي كل مرة كان يشتم واحدة جديدة، فلا أحد يستطيع مجاراته في ذلك في كل تايوان.

راح الخفير تشي يستفز خالي، فلم يوفر خالي سبابه على الخفير والمفوض والمخفر وحتى الحكومة و قوانينها، وأية شتائم مقذعة! حتى أن أمي راحت ترتجف خوفاً من شتائمه بينما راح الجوار على الأسطح يصفقون له كلما أطلق شتيمة.

كنت حين ذاك في السابعة عشرة من العمر.

يومها لم يذهب خالي إلى مخفر الشرطة، ولم يعكر مزاجه بتاتاً.

لا أدري لمَ لم يذهب خالي يومها إلى مخفر الشرطة، أهو الخوف أم النسيان؟ لو ذهب لعرفت، لأنني أنا من سيأخذه بيده بسبب عجزه.

مساء اليوم التالي، وبينما كان قرص الشمس النحاسي الأحمر يختفي في المغيب، انتهت أمي من تحضير مائدة خالي، وبعد أن

ارتشف الرشفة الأولى من قدح العرق، سُمع صوت الخفير تشي:

-هيه، يا خالي واو.. عمت مساءً.. هيا ستأتي معي إلى المخفر...

أجابه خالي:

-لن أعكر مزاجي في هذه الساعة يا تشي، ولن أذهب إلى أي مكان.

استمر الحديث في تلك الأمسية كما في الأمسية السابقة تماماً، الخفير تشي يستفز خالي وهو يرد عليه بالشتائم، وقهقهات الجوار تتعالى على الأسطح، شتائم خالي في هذه الأمسية كانت أطول من سابقتها، وفي الليلة الثالثة تكرر الشيء نفسه حتى أن الجوار اعتادوا هذا النوع من التسلية لدرجة فلو تأخر الخفير تشي قليلاً قالوا:

-أين هو؟.. لم تأخر الخفير تشي هذه الليلة.

-لقد تأخر هذا المساء.

-هل نرسل أحداً كي يأتي به؟..

و من يراه قادماً يصفق فرحاً:

-هاهو قد أتى؟..

أخذ بعض الجوار من الأحياء الأخرى بالقدوم إلى حينا كي يستمعوا إلى شتائم خالي وحديثه هو مع الخفير تشي وهكذا تمتلئ الأسطح بالضيوف من تلك الأحياء.

و أخيراً اعتادت أمي، ولم تعد ترتعد خوفاً كالسابق، ولم تعد تبكي، تستمع بصمت، بل إنها أخذت بعض الأحيان تشاركهم في القهقهة لعدم قدرتها على تمالك نفسها.

استمر ذلك لمدة أسبوعين، وكان سيستمر أكثر من ذلك، لو

لم يُخبر أحدهم المخفر عن ذلك، ولم يعرف من هو المخبر، حتى أن الجوار والذين ساءهم هذا الموقف كانوا يقولون "أخ لو نعرف من هو هذا المخبر"، لكن ما عرُف بشكل مؤكد هو أن الخفير تشي لم يقم بذلك، وأنه لم يخبر المفوض عن شتائم خالي أثناء مهمته الرسمية، حتى أنه ذات مساء قدم إلى بيتنا وأعلم خالي بانزعاجه عن هذه الأخبارية وتمنى ألا يُشك فيه في ذلك، بينما كان خالي يحاول تهدئته:

-لا تنزعج بتاتاً يا تشي ولا تهتم، حتى أنه قدم له قدحاً من العرق.

أخذت خالي العاجز إلى مخفر الشرطة، وهناك قال له الخفير الذي يعرفه من قبل:

-أهلاً وسهلاً يا خال، عليك إخبارية أ صحيح ما تناهى إلينا أنك تطاولت على قوانيننا و مسؤولينا وحكومتنا والوالي العام؟ ولم يكن ذلك مرة واحدة بل تكرر ذلك عدة مرات، أ صحيح ذلك يا خالنا واو؟

أجابه خالي:

-يوه ه ه نعم لقد شتمت.

-فكر جيداً وحاول أن تتذكر، بالتأكيد لم تشتم أحداً لأنه لم يسمعك أحد من الجوار.

أجابه خالي مستغرباً:

-أستغرب ذلك كثيراً خاصة أنني سببت بصوتٍ عالٍ سمعه الجميع.

دخل جميع رجال الشرطة غرفة المفوض حالاً عندما علموا

بقدوم خالي، ومن لم يجد منهم مكاناً له في الغرفة وقف في الممر، وراحوا يستمعون إلى ما يقوله خالي من الباب المفتوح.

سأله المفوض:

-إذاً فأعلمنا كيف جرى ذلك؟..

راح خالي بشرح التفاصيل دون أن يغير ما جرى أو يحرفه والمفوض يسأله: وهل شتمت هذا؟

و يجيبه خالي قائلاً:

-نعم شتمته.

-حسناً وكيف شتمته؟.

راح خالي يعيد الشتيمة كما أطلقها أمام المفوض. وبينما كان المفوض يسأله هل شتمت فلاناً؟

وفلاناً؟ وفي بعض الأحيان كان المفوض يذكر بعض أسماء الذين لم يشتمهم وهنا كان خالي يقول للمفوض:

-آه، لقد نسيته.

طلب المفوض من خالي مراجعته في اليوم التالي، وبالفعل أخذته إلى المخفر وهناك تكررت الأمور ثانية كسابقتها تماماً:

-خالي واو هل شتمت فلاناً؟.

- نعم شتمته.

-وكيف شتمته؟

يكرر شتيمته ثانية. وبعد مراجعات استمرت عدة أيام قال المفوض:

-سأحيلك إلى النائب العام.

أخذت خالي إلى النائب العام. بعد دخولنا الغرفة قدم عدة أشخاص، وعلى الأغلب النائب العام والمحقق كانا بينهم، وبعدما قرأ المحقق إفادة خالي التي قدمها في المخفر سأله:

-هيا حدثنا عما جرى.

قام خالي بشرح كل ما جرى ثانية.

-كيف شتمت؟.. هيا أعلمنا ثانية.

استمر استجواب خالي عدة أيام، وفي كل يوم كان يزداد عدد المتجمهرين في الغرفة، وأخيراً أحالوه إلى المحكمة. قام جيراننا بجميع مبلغ من المال فيما بينهم واتفقوا مع محام ليدافع عن خالي، وحسبما يروى فإنه من أفضل محامي تايوان. سمعنا أن الخفير تشي ومفوض المخفر ساهما أيضاً في هذا المبلغ. وبعد أن سمع المحامي أقوال خالي تنازل عن جميع أتعابه، وهكذا تم تقديم المبلغ المذكور لخالي.

أخذته يوم الجلسة إلى المحكمة. ولكن أي حشد كان هناك! حتى أن رواق المحكمة كان يضيق عليهم فتوزعوا في الممرات، قدم الجميع رغبة في الاستماع. وعندما علمت أمي أنهم سيوقفونه بعد الجلسة الأولى حزنت كثيراً وراحت تشهق من البكاء مقرفصة جانب الجدار.

و بعدما تثبّت القاضي ذو القسمات القاسية من بطاقة خالي الشخصية أعلمه أنه متهم بالتطاول على المقام المقدس وأشخاص عدة، وسأله عن أقواله:

-هل شتمت؟..

طلب المحامي من خالي مصراً عدم الاعتراف بما نسب إليه،

خاصة أنه لا يوجد من يشهد بذلك، حتى الخفير تشي كان سيقول إنه لم يسمع بذلك. وبسبب سؤال القاضي راح خالي فترة من الزمن يبتلع ريقه، وكأن ثمة شيئاً كبيراً علق في حلقه، وهو يحاول إخراجه جاهداً، ولكنه في النهاية استطاع إخراجه عندما قال:

-نعم شتمت.

ارتفع في قاعة المحكمة صوت صخب وضجيج.

سأله القاضي:

-ومن شتمت، وكيف شتمت؟..

راح خالي يعدد أسماء الذين شتمهم.

انفردت أسارير القاضي، وبدت على وجهه إمارات الراحة، هل شتمت فلاناً؟.. وفلاناً.. رد عليه معترفاً.

-لمَ شتمتهم؟ وماذا قلت؟..

راح خالي وبقوة غير متوقعة قياساً لعمره يكرر الشتائم تماماً كما كان يشتم على السطح وفي مخفر الشرطة وأمام المحقق. أجل القاضي الجلسة القادمة مدة شهرين، ولهذا السبب استمرت جلسات المحكمة مدة طويلة. أخذت خالي بعد شهرين إلى المحكمة. وثانية تكرر نفس الشيء

-هل لديك شهود يثبتون أنك شتمت؟.

أجابه خالي:

-كثيرون من يشهدون على ذلك وفي مقدمتهم الخفير تشي وجميع الجوار لأن ذلك كان في الصيف، وجميعهم كانوا على أسطح منازلهم.

جرت المقابلة بين خالي والخفير تشي كما في المسرح تماماً إذ كررا ما دار بينهما في الليلة الأولى، وفي الجلسات التالية تمت دعوة

الجوار كشهود، وهكذا راحت فترة محاكمته تطول. حتى أن ذلك المحامي المشهور كان يستغرب ذلك ويعبر عن عدم فهمه لأسباب إطالة مدة المحاكمة.

استمرت محاكمة خالي أكثر من سنتين، ولم تنته لأن ملف القضية طوي وأغلق بسبب صدور عفو عام.

استمر خالي في شرب العرق الذي تقطره أمي من الأرز، صيفاً على السطح وشتاءً في غرفة الموقد.

ذات يوم انقلب خالي وقدح العرق بيده ومات. أقيمت لخالي مراسم جنازة لم تشاهد من قبل إذ شارك فيها جميع أهالي منطقتنا وحتى المناطق القريبة منا، وقد شارك الخفير تشي في تلك المراسم، وكان يبكي بحرقة ومرارة كذلك المفوض وعناصر المخفر، لم أشاهد المحقق الذي أجرى التحقيق مع خالي لكنني رأيت القاضي.

جميع المشاركين كانوا يتذكرون شتائم خالي ويرددنها وأطلقوا عليه لقب أهم الشتامين.

يساري أنت أم يميني؟!!!

ثلاثة أسرة في عنبر المشفى، أحدها شاغر، وعلى الثاني اضطجع شخص ملفلف الوجه والرأس واليدين، من نبرة صوته يبدو أنه شاب في مقتبل العمر، لا شيء غير ذلك يوحي إلى عمر شخص ملفلف ممدد على سرير كالمومياء، فتحتان فقط تظهران فمه وعينه.

شخص آخر في أوسط العمر أدخل المشفى قبل الظهر، لينزل على السرير الثالث.

قال له الشاب الملفلف:

- عافاك الله يا عم.

- سلمت وعوفيت.

-عدم المؤاخذة يا عم، منذ ثلاثة أيام وأنا أدعو إلى ربي أن يرسل إليَّ من يجيد القراءة والكتابة.. هل تجيدهما يا عم؟..

-قليلاً.. لكن لمَ سألت؟..

-لقد أرسلك الله إلى هذا المكان. لقد أُهِنتُ هنا يا عم، كسروا عظامي، وجعلوني أشلاءً ...

راح الشاب يتابع حديثه وبدا من نبرة صوته أنه يبكي ويئن.

-هل تكتب لي رسالة يا عم؟ اكتب لي رسالة كي أعلم أهل قريتي بحالي، ولأقول لهم إنني فقدت إنسانيتي، هاك المغلف والورقة، فقد جهزتهما من قبل ...

-حسناً سأكتبها.

وضع الرجل الورقة والمغلف على المنضدة وأخرج القلم من جيب بيجامته، ثم أمسك الورقة بيده وتهيأ للكتابة بعدما أسند الورقة إلى قطعة من الورق المقوى.

-هيا قل.

راح الشاب يلقنه ما يود كتابته وهو يشهق من البكاء:

-إلى حضرة العزيز المحترم:

روحي مشتاقة لأخي "طوبل عمر" عمر الأعرج.

راح الرجل يدون ما يلقنه الشاب:

-"بداية لا بد من السؤال عنكم وعن صحتكم وعافيتكم متمنياً من الله عز وجل دوام الصحة و العافية".

قال له الرجل:

-برافو "ما أجمل الأفكار التي تطرحونها لكتابة الرسالة".

أجابه الشاب:

-أعرف جيداً طريقة صياغة مقدمة الرسالة وخاتمتها، والسبب في ذلك يا عم هو أنني حفظتهما عن ظهر قلب من كثرة ما قرأت الرسائل أمامي في مقهى القرية، أما عرض الرسالة ومتنها فهو غاية في الصعوبة يا عم. اكتب يا عم من فضلك "وإن جاز حسن سؤالكم عنا، فأحوالنا غاية في السوء، وأنا مرمي أئن متألماً في ركن من أركان المشفى. ونعلل النفس بالأمل ما دامت روحنا في جسدنا وما دمنا على قيد الحياة.

ثم أردف الشاب قائلاً:

-بعد ذلك تبدأ الصعوبة في التلقين يا عم، فأنا في الأيام الماضية

التي قضيتها هنا كنت أفكر كيف ستكون المقدمة حتى حفظتها عن ظهر قلب.

سأله الرجل المتلهف إلى معرفة ما أصاب هذا الشاب قائلاً:

-لمَ الصعوبة؟.

أجابه الشاب:

-هكذا صعبة وحسب، لأنه كما تعرفون، فكل رسالة تحمل موضوعات وأخبار تختلف عن غيرها وبذلك يختلف العرض، لكن هل تستطيع بطريقتك كتابتها يا عم إذا ما شرحت لك ما جرى لي؟..

-لمَ لا؟.. قد أقوم بذلك، هيا أشرح لنرى.

بدأ الشاب الحديث عما جرى له:

-أزف موعد التحاقي بالخدمة العسكرية، وفي العام القادم إذا كان لي نصيب في ذلك، سألتحق بالخدمة العسكرية.. معروف لدينا في القرية أنه من يملك النقود يُسر كثيراً في خدمته، ومن لا يملك يتعب. لذلك لا بد من أن أمتلك بعض النقود قبل بدء الخدمة العسكرية، في أثناء خدمتنا للوطن تلزمنا النقود، يعني ثمن السجائر وما شابه ذلك.. لذلك قلت في نفسي لمَ لا أذهب إلى استنبول تلك الديار المقدسة، لأجد عملاً وأجمع بعض النقود، وبذلك أكون قد كسبت بعض نفقاتي.

و عندما وصلت إلى استنبول، رحت أبحث عن أماكن إقامة أبناء قريتي فعنوانهم مسجل على ورقة، فسألت بعضاً ممن يجيدون القراءة عن المكان والشارع، كذلك بحثت عن المقهى الذي يجلسون و يجتمعون فيه. عرفت فيما بعد أن اسم تلك المنطقة هو "تقسيم"،

وأخيراً وصلت إلى تلك المنطقة المشؤومة، وهناك سألت الرائح والآتي. لا أدري ما سبب احتشاد الناس هناك، لكن أي جمهور، لا تسأل، بقدر سكان ألف قرية مثل قريتنا.

حاولت الخلاص والخروج من داخل تلك الجماهير المجتمعة، لكنني لم استطع، وهكذا احتُبست داخلها كما لو احتبست بين فكي كماشة، حاولت كثيراً لكن دون جدوى، يبدو أن الخروج من داخلها مستحيل، رحت أنجر تحت اندفاع سيل الناس إلى هذا الجانب تارة وإلى ذلك تارة أخرى، حتى وجدت نفسي انجر معهم لأصل إلى مكان ما، وهناك صعد أحدهم مكاناً عالياً ثم راح يصرخ بكل ما أوتي من قوة، وبرغم أن كلامه كان مبهماً وغير مفهوم إلا أن الناس كانت تصفق له باستمرار وتصرخ "تحيا"، وفي تلك اللحظات حصل ما حصل، وإذا كل واحدٍ منهم يطلق ساقيه مسابقاً الريح، يركضون، يركضون بطريقة وكأنه الخلاص، الجميع هناك يركضون، لكن من يركض خلف من؟ هذا ما لم أعرفه، وجدت نفسي، وتحت ضغط المتدافعين، أركض مثلهم، إلا أنني لم أستطع مجاراتهم، وقد يكون السبب جوعي المدقع، وخاصة أن معدتي خاوية لم يدخلها لا طعام ولا شراب منذ يومين. وفجأة سقطت على الأرض، لكن لا أدري لمَ سقطت، هل دفعني أحد فاقدي الضمير، أم أحدهم عرقل سيري بقدمه، مهما كانت الأسباب وجدت نفسي ممدداً على الأرض. حاولت النهوض، لكن هيهات، إذ إن الراكضين كانوا يدوسونني، ومن كثرتهم اختلط دمي بعرقي. وفي لحظة ما، استطعت النهوض ووقفت على قدميّ، وإذا بي أجد نفسي أمام مجموعة تركض نحوي، وكل منهم وعصاه بيده أو قضيب معدني أو يد معول

"قزمة"، كل واحد منهم يتقدم نحوي راكضاً ومن عينيه يتطاير الشرر، ومن فمه يسيل الزبد. هنا تيقنت أن تلك المجموعة كانت تركض للخلاص من هذه المجموعة.. اقترب مني أربعة أشخاص وبعد أن أمسكوا بي وأركعوني ثم ركبوا على ظهري، ثم راح أحدهم يصرخ ويقول "ها هو ذا أحد الخونة، ها قد أمسكنا بأحدهم، من يحب دينه وإيمانه وربه ورسوله فليضربه" ومع صراخه راح الجميع ينهال عليّ بالضرب، وبرغم توسلاتي واستغاثتي "آه يا أخوتي أنا غريب هنا، قدمت إلى استنبول بحثاً عن العمل، أنا داخل عليكم" إلا أنهم لم يتوقفوا عن الضرب، وهكذا أضحت كل توسلاتي "كضراط الطبال".

على ما يبدو من أعينهم التي يتطاير منها الشرر أنهم لن يستجيبوا لكل توسلاتي، كانوا يضربونني بكل قسوة، يرفعونني ثم يلقون بي على الأرض، ولكن لا أدري كيف خرج من بينهم واحد يتمتع بضمير يقظ وقال لهم:

-توقفوا، لنفهم ما في قلبه، ولك أنت يساري أم يميني؟.

لم أفهم ما قاله، وماذا يعني يساري أم يميني؟ وأيهما يرضي رغبتهم وينقذني من بين أيديهم؟ لذلك وجدتني أقول "ما هذا الكلام الحمد لله جميعنا يساريون" لم أتمم عبارتي حتى انهالوا علي بالضرب المبرح، أحدهم ينهض من فوقي لينزل خمسة، شعرت أن الدنيا بأكملها تكومت فوقي، ولو لم أتظاهر بالموت، لقتلوني بلا شك، بصقوا علي وقالوا:

"شكراً لله ها قد تخلصنا من كافر آخر، لقد فطس عديم الضمير" ثم انصرفوا.

بعدما هدأت الأمور حاولت النهوض والسير، ولكن كيف، لقد انهارت قواي تماماً، لذلك رحت أزحف قليلاً ثم أعرج، وعلى هذه الحالة دخلت في مجموعة أخرى، هؤلاء أيضاً حاصروني ثم راحوا يسألونني "يساري أنت أم يميني؟".

قبل قليل كانوا سيزهقون روحي لأنني قلت يساري، وهل أنا أحمق حتى أقول لهم بأنني يساري، ولكن عندما قلت لهم كي أنقذ نفسي "شكراً لله أنا يميني" راحوا يكيلون لي شتى أنواع الضرب.. يا الله مهما قلت لهم فلن أتخلص منهم.. ومع ذلك فقد كانت هذه المجموعة أكثر رحمة من تلك، يكفي أنهم لم يجروا خلف أحد، وهكذا تخلصت منهم.

لن أطيل عليك يا عم، قلت لهم يساري فضربوني، قلت لهم يميني أيضاً فضربوني، هذه المجموعة ضربتني وتلك أيضاً ضربتني.. واضح أنني فقدت وعيي، ولكن كم من الوقت لا أدري، لأنني أفقت على لكزات أحدهم فتحت عينيّ وإذا بأحدهم والعصا بيده واقف فوق رأسي يبرير ويهمهم والشرر يتطاير من عينيه، سبحان الله، بني آدم، خلت أنه حي..

رحت أحدث نفسي وأدعوه قائلاً "إيه يا ربي العظيم، يا إلهي أنطقني بما يعفيني من شر هؤلاء، أعن عبدك الغريب" رغم أنني قلت له" أنا يا إخوتي قروي، ولم أنهِ خدمتي العسكرية بعد، وفي القرية لم يدخلونا المدارس، ولم يعلمونا فمن أين لنا أن نعرف يميننا من يسارنا.."، إلا أنه هزني عدة مرات وسألني "إذن ماذا أنت؟". نعم هكذا جيد إسألني من أكون لأجيبك، ولكن عندما قلت لهم "أنني عامل على باب الله" راح يضربني وهو يقول "عامل يعني كادح.. يعني

يساري" نعم رموني على الأرض وراحوا يدوسونني. الروح غالية جداً يا عم.. لا أدري كيف هربت ودخلت دكاناً، وهناك تجمعوا على بابه، راح صاحب الدكان يتوسل إلي "اخرج يا صاحبي، ستخرب دكاني. بالفعل إن لم أخرج فسيخربونها فوق رأسه لا محال، وإن خرجت فهذا يعني أنني انتهيت، غامرت وخرجت راكضاً، فلحقتني ثلة منهم، لكن ليست كالثلة التي تعرفها، لأنها كانت تتزايد باستمرار حتى ظننت أن أهل استنبول يجرون خلفي، حاولت أن أجري بكل استطاعتي، وهم كذلك، نعم يقولون أن الملاحَق يركض أسرع من الملاحِق، ولكن لماذا؟.. لأن الملاحَق يركض من حلاوة الروح.. نعم هذا صحيح..

ولك هل أتينا إلى استنبول كي نُضرب؟ على أية حال، لن أطيل عليك يا عم، فعندما عرفت أنهم لن يستطيعوا اللحاق بي، تابعت مسيري، وإذا بي أمام مجموعة أخرى تعترض مسيري، لذا رحت أراوغهم بطريقة الركض الملتوي، وإذ بي أمام لوحة كُتب عليها مخفر للشرطة، قلت ها قد أشفق الله علي، ووضعني أمام مخفر الشرطة. دخلت المخفر، أووه، شكراً إن أرواحنا آمنة في مخفر الدولة، وقبل أن أستجمع شتات عزيمتي، سألني أحد رجال الشرطة "ولك أما قلت أمام الجميع أنك يساري" ثم انهال علي برفسات"، قلت له: لا، بل هم أجبروني تحت الضرب على قول ذلك" لم يقتنع الخفير بما قلت لذلك تابع لكماته ورفساته:

-هيا قل أنت يساري؟.

-حاشا لله، لست كذلك، ومن أنا حتى أكون يسارياً؟

-هاه.. إذاً ستصبح يسارياً؟.

-استغفر الله.

-و لك قل هل أنت يساري؟

لم أستطع الصمود أكثر من ذلك:

-يا أخوتي أنا لست يسارياً ولا يمينياً، أنا مثلكم تماماً.

في أثناء ذلك قدم مسؤولهم الكبير وأمرهم قائلاً:

-توقفوا، سأعرف الآن إن كان يسارياً أم لا. ثم سألني

-هيا قل لنا من هو ناظم حكمت، وكيف تعرفه؟.

لم أسمع باسم ذاك الشخص الذي ذكره، ولكن المصيبة الكبرى أنني أخشى أن أقول بأنني لا أعرفه و يكون هذا الشخص من المفترض معرفته وقد يكون من مسؤولينا، عندئذ سيغضبون علي لأنني لا أعرفه، وأعرض نفسي للضرب ثانية، لذلك اتكلت على الله ورحت أحدث نفسي داعياً إلى الله أن ينطقني بما فيه الخلاص، من ثم قلت له:

-ليحمه الله، مكانته محفوظة في قلوبنا، ليبق اسمه خالدا، رجل جيد وعظيم.

لم أكد أتمم عبارتي، حتى كانت نجوم الظهر تلمع أمام عينيّ، والصواعق تدق رأسي.

ضربوني كثيراً. فتحت عينيّ يا عم وإذ بي في هذه المشفى. عظامي مدقوقة، ومنذ أسبوع أتلوى من الألم، لا أدري هل سيستطيعون إعادة عظامي إلى مكانها، فأنا حتى الآن لا أفرق يدي عن رجلي.

هذا كل ما جرى لي يا عم. اكتب ذلك يا عم وقل لهم أن يرسلوا لي على وجه السرعة أجرة الطريق والثياب ويخلصوني من هذا المكان الذي يسمونه باستنبول. واكتب في ختام الرسالة: مع فائق تحياتي، ومع تقبيل أيدي الكبار وأعين الصغار".

الفهرس

تقديم ٥

حتى التزوير لا يمكننونا من القيام به ١٣

أشياء أمريكية في مزاد علني..... ٢٧

المساعدة الصديقة ٣٣

لا تخف ٤٩

الانتقام..... ٦٣

لا تنسي البطاقات يا عزيزتي..... ٦٩

تدوين تلك الليلة ٧٧

واقعة مضحكة جداً ٩١

المفسد بحاجة للعتابا..... ١٠٣

خالي جيانغ واو..... ١٣٧

يساري أنت أم يميني..... ١٤٧

KMH

من منشورات دار علاء الدين في القصص والروايات

- الأقصوصة السوفيتية المعاصرة
  مجموعة مؤلفين
- ذكراه في القلب
  انا غاغارين
- النطع
  جينكيز إيتماتوف
- طائر الكريم
  وهيب سراي الدين
- أسرار المدافن المصرية
  أجاثا كريستي
- الركض عبر أزقة الغربة
  طلال شاهين
- المهندسون
  وهيب سراي الدين
- حياة واحدة لا تكفي
  سعيد أبو الحسن
- محاكمة سقراط
  بوري فانكين
- رفيقة سفر
  صالح القباني
- مذكرات امرأة
  روشن بدر خان
- يسلم الوطن
  عزيز نيسين
- من مذكرات معلمة
  سعاد مكارم
- خصيصا للحمير
  عزيز نيسين
- موت يومي حقيقة ما
  جهاد عقبل
- الشمس في كفي
  ابتسام شاكوش
- المحطة الأخيرة
  ممدوح حمادة

بؤس الشيطان
  بريم ستوكر

- حكاية البغل العاشق
  عزيز نيسين
- التجربة الأخيرة
  بوليا إفانوفا
- القيد
  فوزات رزق
- ربما غداً
  صلاح دهني
- عواء الرجل الميت
  طلال شاهين
- لأجلك يا خروف
  إياد ناصر
- هالوليا
  عادل أبو شنب
- جلنار
  ممدوح حمادة
- حكايات زمن يتصاعب
  الحبيب الحمدوني
- خيمة تخفق تحت الشمس
  وهيب سراي الدين
- دف الصخر
  مطاع القاق
- شوام ظرفاء
  عادل أبو شنب
- مذكرات حبة قمح
  ريما فليحان
- أحلام إيفان المأساوية
  د. ماجد علاء الدين
- فالس الوداع
  ميلان كونديرا
- لا بديل
  عبد الناصر متعب المغوش
- قاعة الأرزاق
  منصور ناصر الدين

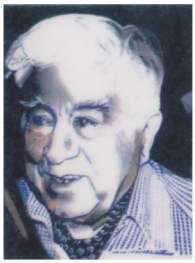

هذا الكتاب...

مجموعة قصصية ناضجة وجذابة للكاتب العالمي الكبير عزيز نيسين، تتسم ببعديها الإنساني والتقدمي، إذ استطاعت تحويل الحزن إلى فرح وتمكين النفس الإنسانية أن تتحمل قدرها من خلال الابتسامة التي تجابه قسوة الحياة وعبثها، ومن خلال السخرية اللاذعة والتقاط المفارقة الكامنة في الكثير من تفصيلات الحياة، وكسر حدود الجدية المفرطة والتجهم الكريه.

إنها مجموعة تتميز برشاقة الأسلوب وبراعة السبك وجمال الإيقاع، ورسم الابتسامة والإضحاك من خلال اللعب على الكلمات واستثمار المواقف المتناقضة.

...الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا - دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨
هاتف ٥٦١٧٠٧١
فاكس ٥٦١٣٢٤١